فوائد وفرائد من وصية عظيمة

لابن أبي الدنيا رَحِمَهُ ٱللَّهُ

في كتابه الإخلاص

فوائد وفرائد من وصية عظيمة
لابن أبي الدنيا رَحِمَهُ ٱللَّهُ
في كتابه الإخلاص

(كان العلماء إذا التقوا تواصوا بهذه الكلمات، وإذا غابوا كتب بها بعضهم إلى بعض، من أصلح سريرته، أصلح الله علانيته، ومن أصلح ما بينه وبين الله، كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومَن اهتم بأمر آخرته كفاه الله أمر دنياه)

تأليف

فواز بن لوفان الظفيري

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله بارئ البريَّات، العالم بالظواهر والخفيَّات، المطَّلع على الضمائر والنيَّات، أحمده على ما أسداه مِن الفضائل وجزيل العطايا والهبات، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحْدَه لا شريك له، فهو المستحقُّ لجميع العبادات، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله خاتم الرسالات، صلى الله عليه وعلى آله وصحْبه المسارعين للخيرات، وسلم تسليمًا كثيرًا مزيدًا إلى يوم الدين.. أما بعدُ:

فهذه وصية عظيمة أوردها العلامة الحافظ ابن أبي الدنيا رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه الإخلاص له، وأسندها عن معقل بن عبيدالله الجزري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: «كان العلماء إذا التقوا تواصوا بهذه الكلمات، وإذا غابوا كتب بها بعضهم إلى بعض أنه من أصلح سريرته، أصلح الله علانيته، ومن أصلح ما بينه وبين الله، كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن اهتم بآخرته كفاه الله أمر دنياه».

وقد مَنَّ الله تعالى عليَّ بكتابة فوائد من هذه الوصية العظيمة، أسأل الله تعالى أن ينفع بها، وأن يجعلها ذخرًا لي يوم ألقاه.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

ومن فوائد هذه الوصية:

١- أن العلماء إذا التقوا وإذا غابوا عن بعض، كتب بها بعضهم إلى بعض.

وهذا يدل على عِظم هذه الكلمات وما لها من تأثير في النفس، وبالعمل بها تستقيم أمور المسلم في دينه ودنياه.

وإلا العلماء لا يتمسكون بها، ويوصي بعضهم بعضًا إلا من أهميتها وما تحتويه من أمور جامعة لخيري الدين والدنيا.

والعلماء منزلتهم عالية في الإسلام، ويدل لذلك شواهد في الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر: ٩].

وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [المجادلة: ١١].

وقال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨].

قال الإمام ابن جماعة -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى- معلقًا على هذه الآية: «بدأ سبحانه بنفسه وثنَّى بملائكته وثلَّث بأهل العلم، وكفاهم ذلك شرفًا

وفضلًا وجلالةً ونبلًا»[١].

والعلماء هم ورثة الأنبياء فيما جاءوا به، فهم قد ورثوا منهم العلم لما ورد عن أبي الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**وإن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر**»[٢].

٢- «**من أصلح سريرته، أصلح الله علانيته**»:

والسريرة ما أسره الإنسان في نفسه، لا يطلع عليه إلا الله تعالى، فالسرائر محلها القلب.

السّريرَةُ: ما يُكتَمُ ويُسَرّ. (والجمع): سَرائِرُ[٣].

«والسرائر جمع سريرة، وهي سرائر الله التي بينه وبين عبده في ظاهره وباطنه لله؛ فالإيمان من السرائر، وشرائعه من السرائر، فتختبر ذلك اليوم، حتى يظهر خيرها من شرها، ومؤديها من مضيعها، وما كان لله مما لم يكن له؛ قال عبدالله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «يُبدي الله يوم القيامة كل سر

---

(١) «تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم»، ابن جماعة الكناني، (ص٤١).

(٢) الترمذي و«صحيح الترغيب والترهيب».

(٣) «المعجم الوسيط»، «مجمع اللغة العربية».

فيكون زينًا في الوجوه، وشينًا فيها. والمعنى: تختبر السرائر بإظهارها، وإظهار مقتضياتها من الثواب والعقاب، والحمد والذم»[١].

من الذي يعلم كرهك وبغضك لأحد من الناس وأنت تجامله ولا يعلم بذلك، من الذي يعلم أنك تصلي وتزكي وتصوم وتخلص في العبادة لله تعالى، قطعًا الذي يعلم هو الله تعالى؛ لأن ذلك من علم الغيب، فلا يعلم ما في القلوب إلا الله تعالى.

قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر: ١٩].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: «يخبر تعالى عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء، جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها، دقيقها ولطيفها؛ ليحذر الناس علمه فيهم، فيستحيوا من الله حق الحياء، ويتقوه حق تقواه، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه، فإنه تعالى يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة، ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر». انتهى.

قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**». رواه مسلم.

---

(١) «بدائع التفسير».

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**». رواه البخاري.

وإن من النعيم المعجل للعبد في هذه الحياة، بل هو جنة الدنيا ولذة العيش: أن يرزق اللهُ العبد نعمة سلامة الصدر على كل مَن عاش معه، أو خالطه، بل على كل أحد! فقلبه أبيض من ثوبه، يرى أن لكل مسلم عليه حقًّا، وليس له حق على أحد؛ ولذا فحياته طيبة مطمئنة، يحب الخير لغيره كما يحبه لنفسه.

وتجلت هذه الصفات الجميلة من سلامة الصدر ونقاء السريرة في هذا الحديث العظيم، عن عبدالله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قيل لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أي الناس أفضل؟ قال: «**كل مخموم القلب صدوق اللسان**»، قالوا: صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟ قال: «**هو التقي النقي لا إثم فيه ولا بغي ولا غلَّ ولا حسد**». رواه ابن ماجه.

والأنبياءُ هم قُدوَتُنا في صلاح السريرة وسلامة القلب، فقد وصف الله تعالى إبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بقوله: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ [الصافات: ٨٤].

واللهُ تعالى وصف نبيَّنا محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأحسن الأوصاف،

فقال سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤]، وهذا يشمل جمالَ أخلاقِه الباطنة والظاهرة.

ثم يأتي بعد الأنبياء في صلاح السريرة وسلامة القلب الصِّدِّيقون، وعلى رأسهم: صِدِّيقُ الأُمَّة الأكبر؛ أبو بكرٍ الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الذي ظَهَرَ صلاحُ سريرتِه وصفاءُ باطنِه في مواطنَ كثيرةٍ من حياته، قال أبو بكر المزني رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما فاق أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أصحابَ محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بصومٍ ولا صلاة، ولكنْ بشيءٍ كان في قلبه»، وقال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما أدرك عندنا مَنْ أدرك بكثرةِ الصلاةِ والصيام، وإنما أدرك عندنا بسخاء الأَنْفُسِ، وسلامةِ الصُّدور، والنُّصْحِ للأُمَّة».

والسلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ضربوا أروع الأمثال في نقاء السريرة وسلامة الصدر ومن تأمل في سيرتهم وجد صلاح السريرة ونقاءها وإخلاصها وخشيتها لله تعالى:

قال ابن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما رأيتُ أحدًا ارتفع مِثْلَ مَالكٍ، ليس له كثيرُ صلاةٍ ولا صيام، إلَّا أنْ تكون له سريرة».

عن القاسم بن محمد قال: «كنا نسافر مع ابن المبارك فكثيرًا ما

كان يخطر ببالي فأقول في نفسي: بأي شيء فضل هذا الرجل علينا حتى اشتهر في الناس هذه الشهرة..؟ إن كان يصلي فإنا لنصلي، ولئن كان يصوم فإنا لنصوم، وإن كان يغزو فإنا لنغزو، وإن كان يحج فإنا لنحج..؟ قال: فكنا في بعض مسيرنا في طريق الشام ليلة نتعشى في بيت؛ إذ طفئ السراج، فقام بعضنا فأخذ السراج وخرج يستصبح، فمكث هنيهة، ثم جاء بالسراج، فنظرت إلى وجه ابن المبارك ولحيته قد ابتلت من الدموع، فقلت في نفسي: بهذه الخشية فضل هذا الرجل علينا، ولعله حين فقد السراج فصار إلى الظلمة ذكر القيامة»[(١)].

وعن نعيم بن حماد قال: «سمعت ابن المبارك يقول: ما رأيت أحدًا ارتفع مثل مالك؛ ليس له كثير صلاة ولا صيام إلا أن تكون له سريرة»[(٢)].

وعن خالد بن صفوان قال: «لقيتُ مَسْلَمَة بن عبدالملك فقال: يا خالد..! أخبرني عن حَسَن أهل البصرة. قلت: أصلحك الله أخبرك عنه بعلم: أنا جاره إلى جنبه وجليسه في مجلسه وأعلم مَن قِبَلي به.

---

(١) «صفة الصفوة» (٤/ ١٤٥).

(٢) «سير أعلام النبلاء».

أشبه الناس سريرة بعلانية، وأشبهه قولًا بفعل، إن قعد على أمر قام به، وإن قام على أمر قعد عليه، وإن أمر بأمر كان أعمل الناس به، وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له، رأيته مستغنيًا عن الناس، ورأيت الناس محتاجين إليه، قال: حسبك..! كيف يضل قوم هذا فيهم...؟»[(١)].

وقال ابنُ الجَوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واللهِ لقد رأيتُ مَن يُكثر الصلاةَ والصومَ والصَّمت، ويتخشَّعُ في نفسِه ولباسِه... والقلوبُ تَنبُو عنه - تَنْفر-، وقدْره في النفوس ليس بذاك! ورأيتُ مَن يلبَسُ فاخرَ الثياب، وليس له كبيرُ نَفْلٍ، ولا تَخشُّع، والقلوبُ تتهافَت على محبته! فتدبرتُ السبب، فوجدتُه السَّريرة..! فمَن أصلَح سَريرَته، فاحَ عبيرُ فضلِه وعَبقت القلوبُ بنشْرِ طِيبِه، فاللهَ اللهَ في السرائر، فإنَّه ما ينفعُ مع فسادِها صلاحُ ظاهر»[(٢)].

قال تعالى: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٧-٨٩].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «القلب السليم هو الذي سلم من الشرك

(١) المصدر السابق.

(٢) «صيد الخاطر».

والغل والحقد والحسد والشح والكبر وحب الدنيا والرئاسة، فسلم من كل آفة تبعده عن الله، وسلم من كل شبهة تعارض خبره، ومن كل شهوة تعارض أمره، وسلم من كل إرادة تزاحم مراده، وسلم من كل قاطع يقطع عن الله، ولا تتم له سلامته مطلقًا حتى يسلم من خمسة أشياء: من شرك يناقض التوحيد، وبدعة تخالف السنة، وشهوة تخالف الأمر، وغفلة تناقض الذكر، وهوى يناقض التجريد والإخلاص، وهذه الخمسة حجب عن الله، وتحت كل واحدة منها أنواع كثيرة، تتضمن أفرادا لا تنحصر؛ ولذلك اشتدت حاجة العبد، بل ضرورته، إلى أن يسأل الله أن يهديه الصراط المستقيم، فليس العبد أحوج منه إلى هذه الدعوة، وليس شيء أنفع له منها»[1].

فمن أصلح سريرته فإن الله تعالى يصلح له علانيته، وبيان هذه الصفة من النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الصحيح؛ إذ سُئِل: أي الناس أفضل؟ فقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**الصادق اللسان، المخموم القلب**»، قالوا: صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟ قال: «**هو التقي النقي، لا إثم فيه ولا غل، ولا بغي ولا حسد**».

---

(١) «الجواب الكافي» لابن القيم (ص١٥١).

أما تفسيره عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لمخموم القلب، فقد جمع ست صفات:

- الصفة الأولى: التقوى.
- الثانية: النقاء.
- الثالثة: الخلو من الإثم.
- الرابعة: الخلو من الغل.
- الخامسة: الخلو من البغي.
- السادسة: الخلو من الحسد.

قال الشيخ الدكتور عبدالله الشثري وفقه الله: والمخموم كما يقول ابن الأثير في «النهاية» (٣/ ١٢٧٨): «هو من خممت البيت إذا كنسته»، وفسره النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنه الذي اتصف بالتقوى والنقاوة، وانتفى عنه الإثم، والبغي، والغل، والحسد، فالقلب التقي هو: القلب الجامع لصفات الخير، وهذا يتطلب من الإنسان مجاهدة قوية في معاهدة قلبه وتطهيره من الصفات الذميمة التي نفاها النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن القلب التقي.

إن القلب التقي النقي هو: الذي يبعث على الوُدّ، والمحبة، والتواصل، ويمنع من التقاطع، والتدابر، فإذا صلح القلب وسلم من الآفات عاش

المسلم مطمئنًا راضيًا بما قسم الله له، مستريح النفس من نزغات الحقد الأعمى، والحسد المهلك؛ لأن فساد القلب يورث الضغائن، ويهدم الصِّلات، ويقطع العلاقات، وليس شيء أسرع في خراب الأرض ولا أفسد لطباع الخلق من القلب الذي يحمل الإثم، والبغي، والغل، والحسد، فهذا يُسلب الفضائل، ويكتسب الرذائل، ويَقضي على الأعمال الصالحة، ويطمس نورها وبهجتها ويعكر صفوها، أما القلب التقي النقي الآمن المطمئن فإن الله تعالى يبارك في قليل عمله، وهو إليه بكل خير أسرع.

وكثير من الناس -إلا من عصم الله، وقليل ما هم- يتعجلون الشقاء لأنفسهم في الدنيا حين تراهم سخروا أوقاتهم، وتفرغوا من مصالح أمورهم في الوقيعة بين الناس، قد احتبس الغل والإثم في قلوبهم، وانحسر البغي والحسد في نفوسهم، فلا يستريحون إلا إذا أرغوا، وأزبدوا، وآذوا، وأفسدوا، وتلمسوا عيوب الناس، وسعوا في إشاعتها، وهذه أفعال دنيئة تخالف تقوى القلوب.

بل تجد بعض الناس من يتورع عن أكل الحرام، أو النظر إلى الحرام، ويترك قلبه يرتع في النهش والنبش عن القدح في الآخرين وتتبع

عوراتهم، والقلب التقي يترفع عن هذه الخطايا، ويخلص لله في عمله، ويترك سوء الظن بإخوانه. والله ولي التوفيق[١].

وعن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**». متفق عليه.

إذن فصلاح العمل مرتبط بصلاح القلب وفساده، يقول الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: «القوم إذا صلحت قلوبهم فلم يبقَ فيها إرادة لغير الله عَزَّوَجَلَّ صلحت جوارحهم فلم تتحرك إلا لله عَزَّوَجَلَّ، وبما فيه رضاه».

ويقول أيضًا: «ويلزم من صلاح حركات القلب صلاح حركات الجوارح»[٢].

٣- «ومن أصلح ما بينه وبين الله، كفاه الله ما بينه وبين الناس»:

والإصلاح ما بين العبد وما بين الله تعالى يكون بإصلاح العلاقة مع الله تعالى وذلك بعدة أمور:

---

(١) «مخموم القلب»، أ.د. عبدالله الشثري، جريدة الجزيرة، الجمعة ٢٧ صفر ١٤٣٦هجرية.

(٢) «جامع العلوم والحكم»، آخر شرح الحديث رقم (٦) بتصرف يسير.

أولاً: بالتوحيد:

والتوحيد هو أول واجب على العبد، وهو أن يعرف ربه، وأن يوحده جَلَّ وَعَلَا؛ يعرف أن الله عَزَّوَجَلَّ هو رب هذا الكون، يعرف أنه هو الخالق المالك الرازق المدبر، أنه هو الإله المعبود المستحق وحده للعبادة، وأن له الأسماء الحسنى والصفات العلى، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١].

أول واجب على العبد أن يعرف ربه وأن يوحده؛ لأن هذا هو الغاية من الخلق؛ قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

والتوحيد من أعظم ما يصلح به العبد ما بينه وبين الله تعالى، فإن العبد إذا أخل بهذا التوحيد العظيم وأشرك بالله تعالى فسدت هذه العلاقة وأصبح العبد من الخاسرين وفي النار من الخالدين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة: ٧٢].

فالموحدون هم أحباب الله تعالى وأصفياءه، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾ [البقرة: ١٦٥].

عدد الشيخ السعدي بعض فضائل التوحيد؛ فقال: «من فضائله:

١- أنه السبب الأعظم لتفريج كربات الدنيا والآخرة ودفع عقوبتهما، ومن أجل فوائده أنه يمنع الخلود في النار، إذا كان في القلب منه أدنى مثقال حبة خردل، وأنه إذا كمل في القلب يمنع دخول النار بالكلية.

٢- ومنها: أنه يحصل لصاحبه الهدى الكامل والأمن التام في الدنيا والآخرة.

٣- ومنها: أنه السبب الوحيد لنيل رضا الله وثوابه، وأن أسعد الناس بشفاعة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه.

٤- ومن أعظم فضائله: أن جميع الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة متوقفة في قبولها وفي كمالها وفي ترتب الثواب عليها على التوحيد، فكلما قوي التوحيد والإخلاص لله كملت هذه الأمور وتمت.

٥- ومن فضائله: أنه يسهل على العبد فعل الخير وترك المنكرات ويسليه عن المصيبات، فالمخلص لله في إيمانه وتوحيده تخف عليه

الطاعات لما يرجو من ثواب ربه ورضوانه، ويهون عليه ترك ما تهواه النفس من المعاصي، لما يخشى من سخطه وعقابه.

٦- ومنها: أن التوحيد إذا كمل في القلب حَبَّبَ الله لصاحبه الإيمان وزينه في قلبه، وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان، وجعله من الراشدين.

٧- ومنها: أنه يخفف عن العبد المكاره ويهون عليه الآلام. فبحسب تكميل العبد للتوحيد والإيمان، يتلقى المكاره والآلام بقلب منشرح، ونفس مطمئنة، وتسليم ورضا بأقدار الله المؤلمة.

٨- ومن أعظم فضائله: أنه يحرر العبد من رق المخلوقين والتعلق بهم وخوفهم ورجائهم والعمل لأجلهم، وهذا هو العز الحقيقي والشرف العالي، ويكون مع ذلك متألهًا متعبدًا لله، لا يرجو سواه ولا يخشى إلا إياه، ولا ينيب إلا إليه، وبذلك يتم فلاحه ويتحقق نجاحه.

٩- ومن فضائله التي لا يلحقه فيها شيء: أن التوحيد إذا تم وكمل في القلب وتحقق تحققًا كاملًا بالإخلاص التام، فإنه يصير القليل من عمله كثيرًا، وتضاعف أعماله وأقواله بغير حصر ولا حساب، ورجحت كلمة الإخلاص في ميزان العبد بحيث لا تقابلها السمٰوات والأرض وعمارها من جميع خلق الله كما في حديث أبي سعيد

المذكور في الترجمة، وفي حديث البطاقة التي فيها لا إله إلا الله التي وزنت تسعة وتسعين سجلا من الذنوب، كل سجل يبلغ مد البصر. وذلك لكمال إخلاص قائلها، وكم ممن يقولها لا تبلغ هذا المبلغ؛ لأنه لم يكن في قلبه من التوحيد والإخلاص الكامل مثل ولا قريب مما قام بقلب هذا العبد.

١٠- ومن فضائل التوحيد: أن الله تكفل لأهله بالفتح والنصر في الدنيا والعز والشرف وحصول الهداية والتيسير لليسرى وإصلاح الأحوال والتسديد في الأقوال والأفعال.

١١- ومنها: أن الله يدافع عن الموحدين أهل الإيمان شرور الدنيا والآخرة، ويمن عليهم بالحياة الطيبة والطمأنينة إليه والطمأنينة بذكره، وشواهد هذه الجمل من الكتاب والسنة كثيرة معروفة والله أعلم»[1].

ثانيًا: بالتقوى:

والتقوى وصية الله تعالى للأولين والآخرين من عباده، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟

(١) «القول السديد شرح كتاب التوحيد» للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي (ص١٣).

﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾﴾ [النساء: ١٣١].

وهي أيضًا وصية الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأمته، فعَن أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: سَمِعت رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخطُبُ فِي حَجَّةِ الوَدَاعِ فَقَالَ: «**اتَّقُوا اللهَ رَبَّكُم، وَصَلُّوا خَمسَكُم، وَصُومُوا شَهرَكُم، وَأَدُّوا زَكَاةَ أَموَالِكُم، وَأَطِيعُوا ذَا أَمرِكُم تَدخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُم**». رواه الترمذي وأحمد.

وعَن بُرَيدَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا بَعَثَ أَمِيرًا عَلَى سَرِيَّةٍ، أَو جَيشٍ، أَوصَاهُ بِتَقوَى اللهِ فِي خَاصَّةِ نَفسِهِ وَبِمَن مَعَهُ مِن المُسلِمِينَ خَيرًا». رواه مسلم والترمذي وأبو داود وابن ماجه والدارمي وأحمد.

والتقوى لغةً: الوقاية، ومصدره: وقاء، بمعنى: حِفْظ الشيء عما يؤذيه، ومنه: قوله تعالى: ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾﴾ [الدخان: ٥٦].

نقل ابن منظور في «معجمه الكبير» «لسان العرب» (٣/ ٩٧١-٩٧٣) عن ابن الأعرابي أنَّ: التُّقاة، والتَّقيَّة، والتقوى، والاتِّقاء بمعنى: واحد، وبيَّن ابن منظور أنَّ معنى وقاه الله وقيًا ووقاية: صانه، تقول: وقيت الشيء أقيه: إذا صنته وسترته من الأذى، وتوقَّى، واتقى بمعنى. والوقاء. والوقاء والوقاية: كلّ ما وفيت به شيئًا، ووقاك الله شرَّ فلان

وقاية، أي: حفظك، وقال أبوبكر: رجل تقي، ويجمع أتقياء، معناه أنه موقٍ نفسه من العذاب والمعاصي بالعمل الصالح[١].

ومعنى قولك: اتَّقِ الله: أي: اجعل بينك وبين عذاب الله وقاية، ومنه: قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اتَّقوا النار ولو بشق تمرة**»[٢].

ومعنى قولك: اتقى فلان كذا؛ أي: جعله وقاية.

ومنه قول النابغة الذبياني:

سقط النصيفُ ولم ترد إسقاطه فتناولتـــه واتَّقتنـــا باليـــد

وأجدر ما يُتَّقَى به من العذاب يوم القيامة، الوجه؛ قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر: ٢٤][٣].

وفي الشرع:

من أجود ما ورد في تعريف التقوى ما قاله التابعي طلق بن حبيب، فإنه قال: «التقوى أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله،

---

(١) «لسان العرب» لابن منظور.

(٢) رواه البخاري ومسلم (٢٣٤٧) عن عدي بن حاتم.

(٣) ملخصًا من «تفسير الطبري» (٨/ ٦٦٥)، و«تفسير ابن كثير» (٤/ ٢٤٣)، و«تفسير الألوسي» (١٢/ ٣٧٤)، و«بصائر ذوي التمييز» (٥/ ٢٥٨)، وغيرها.

وأن تجتنب معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله»[١].

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «جامع العلوم والحكم»: «وأصل التقوى أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقاية تقيه منه، فتقوى العبد لربه أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من ربه من غضبه وسخطه وعقابه وقاية تقيه من ذلك، وهو فعل طاعته واجتناب معاصيه». انتهى.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما التقوى فحقيقتها العمل بطاعة الله إيمانًا واحتسابًا، أمرًا ونهيًا، فيفعل ما أمر الله به إيمانًا بالأمر وتصديقًا بوعده، ويترك ما نهى الله عنه إيمانًا بالنهي وخوفًا من وعيده»[٢].

قال الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تقوى الله سبحانه، هي عبادته، بفعل الأوامر وترك النواهي عن خوف من الله وعن رغبة فيما عنده، وعن خشية له سبحانه، وعن تعظيم لحرماته، وعن محبة صادقة له سبحانه ولرسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[٣].

---

(١) «كتاب الزهد» لعبدالله بن المبارك (ص٤٧٣)، فقرة (١٣٤٣)، و«جامع العلوم والحكم» (ص١٤٩).

(٢) «الرسالة التبوكية» (ص١٥).

(٣) محاضرة نشرتها مجلة البحوث الإسلامية، الرياض، العدد (٥٩).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: «فَائِدَة جليلة جمع النبي بَين تقوى الله وَحسن الْخلق لِأَن تقوى الله يصلح مَا بَين العَبْد وَبَين ربه، وَحسن الْخلق يصلح مَا بَينه وَبَين خلقه؛ فتقوى الله توجب لَهُ محبَّة الله وَحسن الْخلق يَدْعُو إِلَى محبته»(١).

ولأهل التقوى علامات تظهر على العبد كما قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: «إن لأهل التقوى علامات يُعرفون بها: صدق الحديث، والوفاء بالعهد، وصلة الرحم، ورحمة الضعفاء، وقلة الفخر والخيلاء، وبذل المعروف وقلة المباهاة للناس، وحسن الخلق، وسعة الخلق مما يقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ»(٢).

وهناك فوائد عظيمة للتقوى في الدنيا والآخرة ذكرها ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: «الفوائد المترتبة على التقوى في الدنيا:

١- التقوى سبب لتيسير أمور الإنسان.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ۝٤﴾ [الطلاق: ٤].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ [الليل: ٥-٧].

---

(١) كتاب «الفوائد» (ص٥٤).

(٢) «حلية الأولياء» (١/ ٢٧٠).

٢- التقوى سبب لحماية الإنسان من ضرر الشيطان.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف: ٢٠١].

٣- التقوى سبب لتفتيح البركات من السماء والأرض.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

٤- التقوى سبب في توفيق العبد في الفصل بين الحق والباطل ومعرفة كل منهما.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ [الحديد: ٢٨].

٥- التقوى سبب للخروج من المآزق وحصول الرزق والسعة للمتقي من حيث لا يحتسب.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

٦- التقوى سبب لنيل الولاية فأولياء الله هم المتقون.

كما قال تعالى: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الجاثية: ١٩].

٧- التقوى سبب لعدم الخوف من ضرر وكيد الكافرين.

قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران ١٢٠].

٨- التقوى سبب لنزول المدد من السماء عند الشدائد ولقاء الأعداء.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [آل عمران: ١٢٣-١٢٥].

وبنزول المدد تكون البشرى، وتطمئن القلوب، ويحصل النصر من العزيز الحكيم، قال تعالى بعد ذلك: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾ [آل عمران ١٢٦].

٩- التقوى سبب للبعد عن العدوان وإيذاء عباد الله.

قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ [المائدة: ٢].

وقال تعالى في قصة مريم: ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ١٧ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨﴾ [مريم: ١٧-١٨].

١٠- التقوى سبب لتعظيم شعائر الله.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ٣٢﴾ [الحج: ٣٢].

١١- التقوى سبب لصلاح الأعمال وقبولها ومغفرة الذنوب.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

١٢- التقوى سبب لغض الصوت عند رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ سواء كان ذلك في حياته أو بعد وفاته عند قبره صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ٣﴾ [الحجرات: ٣].

قال العلماء: يكره رفع الصوت عند قبره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما كان يكره في حياته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأنه محترم حيًا وفي قبره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دائمًا.

١٣- التقوى سبب لنيل محبة الله عَزَّوَجَلَّ.

وهذه المحبة تكون في الدنيا كما تكون في الآخرة، كما قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ قَالَ: مَن عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَد آذَنتُهُ بِالحَربِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبدِي بِشَيءٍ، أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افتَرَضتُ عَلَيهِ وَمَا يَزَالُ عَبدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحبَبتُهُ كُنتُ سَمعَهُ الَّذِي يَسمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبطِشُ بِهَا وَرِجلَهُ الَّتِي يَمشِي بِهَا وَإِن سَأَلَنِي لَأُعطِيَنَّهُ وَلَئِن استَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ...**». رواه البخاري.

قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [آل عمران: ٧٦].

١٤- التقوى سبب لنيل العلم وتحصيله.

قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

١٥- التقوى سبب قوي تمنع صاحبها من الزيغ والضلال بعد أن منّ الله عليه بالهداية.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣].

١٦- التقوى سبب لنيل رحمة الله، وهذه الرحمة تكون في الدنيا كما تكون في الآخرة.

قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأعراف: ١٥٦].

١٧- التقوى سبب لنيل معية الله الخاصة: فمعية الله لعباده تنقسم إلى قسمين:

معية عامة: وهي شاملة لجميع العباد، بسمعه وبصره وعلمه فالله سبحانه سميع، وبصير، وعليم بأحوال عباده، قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [المجادلة: ٧].

معية خاصة: تشمل النصرة والتأييد والمعونة، كما قال تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه: ٤٦].

ولا شك أن معية الله الخاصة تكون للمتقين من عباده قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾ [النحل: ٢٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣٦﴾ [التوبة: ٣٦].

١٨- إن العاقبة تكون لهم.

قال تعالى: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ١٣٢﴾ [طه: ١٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٍ ٤٩﴾ [ص: ٤٩].

وقال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ٤٩﴾ [هود: ٤٩].

١٩- التقوى سبب لحصول البشرى في الحياة الدنيا؛ سواء بالرؤيا الصالحة أو بمحبة الناس له والثناء عليه.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣﴾ [يونس: ٦٣].

وعَن عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ قَالَ: سَأَلتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَن قَولِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ [يونس: ٦٤]، فَقَالَ: «**هِيَ الرُّؤيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا المُسلِمُ أَو تُرَى لَهُ**». رواه الترمذي وابن ماجه والدارمي وأحمد.

وعَن أَبِي ذَرٍّ، أَنَّهُ قَال: يَا رَسُولَ اللهِ، الرَّجُلُ يَعمَلُ العَمَلَ فَيَحمَدُهُ

النَّاسُ عَلَيهِ وَيُثْنُونَ عَلَيهِ بِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تِلكَ عَاجِلُ بُشرَى المُؤمِنِ**». رواه مسلم وابن ماجه وأحمد.

٢٠- إن التقوى إذا أخذت النساء بأسبابها والتي من ضمنها عدم الخضوع بالقول؛ فإنها تكون سببًا في ألا يطمع فيهن الذين في قلوبهم مرض.

قال تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾﴾ [الأحزاب: ٣٢].

٢١- إن التقوى سبب لعدم الجور في الوصية.

قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ [البقرة: ١٨٠].

٢٢- إن التقوى سبب في إعطاء المطلقة متعتها الواجبة لها.

قال تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾﴾ [البقرة: ٢٤١].

٢٣- إن التقوى سبب في عدم ضياع الأجر في الدنيا والآخرة.

قال تعالى بعد أن منّ على يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بجمع شمله مع إخوته: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يوسف: ٩٠].

٢٤- إن التقوى سبب لحصول الهداية.

قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: ١-٢].

الفوائد المترتبة على التقوى في الآخرة:

١- التقوى سبب للإكرام عند الله عَزَّوَجَلَّ.

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ۝١٣﴾ [الحجرات: ١٣].

٢- التقوى سبب للفوز والفلاح.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ۝٥٢﴾ [النور: ٥٢].

٣- إنها سبب للنجاة يوم القيامة من عذاب الله.

قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ۝٧١ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا ۝٧٢﴾ [مريم: ٧١-٧٢].

وقال تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ۝١٧﴾ [الليل: ١٧].

٤- إنها سبب لقبول الأعمال.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٢٧﴾ [المائدة: ٢٧].

٥- التقوى سبب قوي لأن يرثوا الجنة.

قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾ [مريم: ٦٣].

٦- إن المتقين لهم في الجنة غرف مبنية من فوقها غرف.

قال تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾ [الزمر: ٢٠].

وعَن عَلِيٍّ بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ فِي الجَنَّةِ لَغُرَفًا يُرَى ظُهُورُهَا مِن بُطُونِهَا وَبُطُونُهَا مِن ظُهُورِهَا**»، فَقَامَ إِلَيهِ أَعرَابِيٌّ فَقَالَ: «لِمَن هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**هِيَ لِمَن أَطَابَ الكَلَامَ، وَأَطعَمَ الطَّعَامَ، وَأَدَامَ الصِّيَامَ، وَصَلَّى لِلَّهِ بِاللَّيلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ**». رواه الترمذي وأحمد.

٧- إنهم بسبب تقواهم يكونون فوق الذين كفروا يوم القيامة في محشرهم، ومنشرهم، ومسيرهم، ومأواهم، فاستقروا في الدرجات في أعلى عليين.

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾ [البقرة: ٢١٢].

٨- إنها سبب في دخولهم الجنة: وذلك لأن الجنة أعدت لهم.

قال تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَكَفَّرۡنَا عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٦٥﴾ [المائدة: ٦٥].

٩- إن التقوى سبب لتكفير السيئات والعفو عن الزلات.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ٥﴾ [الطلاق: ٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَكَفَّرۡنَا عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٦٥﴾ [المائدة: ٦٥].

١٠- إن التقوى سبب لنيل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين.

قال تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣١﴾ [النحل: ٣١].

١١- أن التقوى سبب لعدم الخوف والحزن وعدم المساس بالسوء يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ بِمَفَازَتِهِمۡ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦١﴾ [الزمر: ٦١].

وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٣].

١٢- أنهم يحشرون يوم القيامة وفدًا إليه تعالى.

والوفد هم القادمون ركبانًا، وهو خير موفود.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾ [مريم: ٨٥].

١٣- أن الجنة تقرب لهم.

قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الشعراء: ٩٠].

وقال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾ [ق: ٣١].

١٤- إن تقواهم سبب في عدم مساواتهم بالفجار والكفار.

قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: ٢٨].

١٥- أن كل صحبة وصداقة لغير الله فإنها تنقلب يوم القيامة إلى عداوة إلا صحبة المتقين.

قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧].

١٦- أن لهم مقامًا أمينًا وجنات وعيونًا.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾﴾ [الدخان: ٥١-٥٦].

١٧- أن لهم مقعد صدق عند مليك مقتدر.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: ٥٤-٥٥].

١٨- أن التقوى سبب في ورود الأنهار المختلفة؛ فهذا نهر من ماء غير آسن، وذلك نهر من لبن لم يتغير طعمه، وآخر من خمر لذة للشاربين.

قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ [محمد: ١٥].

وفي الحديث عَن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «... **فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَسَلُوهُ الفِردَوسَ فَإِنَّهُ أَوسَطُ الجَنَّةِ وَأَعلَى الجَنَّةِ وَفَوقَهُ عَرشُ الرَّحمَنِ وَمِنهُ تَفَجَّرُ أَنهَارُ الجَنَّةِ**». رواه البخاري وأحمد.

١٩- أن التقوى سبب للسير تحت أشجار الجنة والتنعم بظلالها.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [المرسلات: ٤١-٤٣].

وعَن أَنَسِ بنِ مَالِكٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عَن النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِنَّ فِي الجَنَّةِ لَشَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ، لَا يَقطَعُهَا**». رواه البخاري وأحمد.

٢٠- أن لهم البشرى في الآخرة بألا يحزنهم الفزع الأكبر وتلقي الملائكة لهم.

قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس: ٦٢-٦٤].

قال ابن كثير: «وأما بشراهم في الآخرة، فكما قال تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

٢١- أن المتقين لهم نعم الدار.

قال تعالى: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [النحل: ٣٠].

٢٢- إن المتقين تضاعف أجورهم وحسناتهم.

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٨﴾ [الحديد: ٢٨]»[1].

اللهم اجعلنا من المتقين السائرين على كتابك وسنة نبيك محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ إمام الأولين والآخرين وإمام المتقين.

ثالثًا: ومن إصلاح العلاقة بين العبد وربه تعالى: استشعار عبادة الإحسان:

ومن أبلغ الأقوال في الإحسان قول من أوتي جوامع الكلم صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**». البخاري ومسلم.

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا القدر من الحديث أصل عظيم من أصول الدين، وقاعدة مهمة من قواعد المسلمين، وهو عمدة الصديقين، وبغية السالكين، وكنز العارفين، ودأب الصالحين».

ومن أبلغ الأقوال في الإحسان قول من أوتي جوامع الكلم صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**». البخاري ومسلم.

(١) «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي» بتصرف يسير.

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «فتح الباري»: «وهذا القدر من الحديث أصل عظيم من أصول الدين، وقاعدة مهمة من قواعد المسلمين، وهو عمدة الصديقين، وبغية السالكين، وكنز العارفين، ودأب الصالحين».اهـ.

قال الشيخ صالح بن فوزان الفوزان حفظه الله تعالى: «أيُّها الناس، اتقوا الله تعالى، واعلموا أن الله سبحانه أمر بالإحسان وأخبر أنه يحب المحسنين وأنه مع المحسنين. قال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة: ١٩٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٨].

قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠].

والإحسان معناه في اللغة: إتقان الشيء وإتمامه.

وأما الإحسان في الشرع: فهو في مقابل الإساءة.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت: ٣٤].

والإحسان يكون فيما العبد وبين ربه بعبادته وحده لا شريك له مخلصًا له الدين وعلى سنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [النساء: ١٢٥].

وقال سبحانه: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [البقرة: ١١٢].

والإحسان في عبادة الله يكون بإخلاصها لله عَزَّوَجَلَّ فلا يدخلها شرك ولا ريا ولا سمعة، ويكون أيضًا بإتقانها على سنة الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فلا يكون فيها بدعة ولا إحداث يبين هذا قوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**». أي: أن تعبد الله سبحانه على وجه اليقين والإيمان الصادق حتى كأنك ترى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فتحسن العبادة بين يديه وتتقيه وتستحي منه وتذل بين يديه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، أن تعبد الله كأنك تراه؛ لأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا يُرى في هذه الدنيا بالأبصار لا يرى في الأبصار في هذه الدنيا، وإنما يرى في القلوب يُرى سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في القلوب؛ وذلك بقوة الإيمان واليقين واستحضار عظمة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

«**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**» أي: إذا لم تبلغ هذه المنزلة الرفيعة فعبد الله اعلم أنه يراك سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ويرى تصرفاتك،

ويعلم ما في قلبك وما في نيتك؛ فأحسن العمل لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه، يعني: إذا لم تبلغ هذه المنزلة فاعلم أنه يراك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو مطلع عليك؛ فإذا علمت ذلك أحسنت العمل له، وأتقنته وخف منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هذا هو الإحسان فيما بين العبد وبين ربه.

والإحسان أيضًا إلى المخلوقين الإحسان بعد الإحسان فيما بين العبد وبين ربه يأتي الإحسان بين العبد وبين المخلوقين، وأول ذلك: الوالدان والأقارب واليتامى والمساكين قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء: ٣٦].

وهذه الآية تسمى آية الحقوق العشرة؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذكر فيها عشرة حقوق بدأ بحقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ثم بحق الوالدين ثم بحق الأقارب إلى بقية الحقوق المذكورة فيها، وهذا من الإحسان بين العبد وبين المخلوقين، كذلك يكون الإحسان إلى الناس حتى فيمن يستحق

العقوبة فتطبق عليه العقوبة بإحسان من غير إسرافٍ ومن غير تساهل، وكذلك حتى في ذبح البهائم التي تذبح للأكل قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته**»(١). انتهى.

أقوال السلف في الإحسان:

قال ابن عيينة: «سئل علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن قول الله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠]، فقال: العدل: الإنصاف، والإحْسَان: التفضُّل»(٢).

وقرأ الحسن البصري: «هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ الآية، ثمَّ وقف؛ فقال: إنَّ الله جمع لكم الخير كلَّه والشَّر كلَّه في آية واحدة، فوالله ما ترك العدل والإحْسَان شيئًا مِن طاعة الله عَزَّوَجَلَّ إلَّا جمعه، ولا ترك الفحشاء والمنكر والبغي مِن معصية الله شيئًا إلَّا جَمَعه»(٣).

---

(١) خطبة جمعة - معنى الإحسان- موقع الشيخ حفظه الله تعالى.

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ٢٩١).

(٣) «حلية الأولياء» لأبي نعيم (٢/ ١٥٨).

وقال ابن القيِّم: «مفتاح حصول الرَّحمة الإحْسَان في عبادة الخالق، والسَّعي في نفع عبيده»[١].

وقال أيضًا: «فإنَّ الإحْسَان يفرح القلب ويشرح الصَّدر ويجلب النِّعم ويدفع النِّقم، وتركه يوجب الضَّيم والضِّيق، ويمنع وصول النِّعم إليه، فالجبن: ترك الإحْسَان بالبدن، والبخل: ترك الإحْسَان بالمال»[٢].

وقال في موضع آخر: «ومِن منازل إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين: منزلة الإحْسَان؛ وهي لبُّ الإيمان وروحه وكماله، وهذه المنزلة تجمع جميع المنازل، فجميعها منطوية فيها، وكلُّ ما قيل مِن أوَّل الكتاب إلى هٰهنا فهو مِن الإحْسَان»[٣].

والإحسان صفة من صفات الله عَزَّوَجَلَّ، فهو سبحانه المحسنُ في خلقه، المحسن إلى مخلوقاته.

بيده الخير كله، وله ينسب الفضل كله، هو الذي خلق الخلق فأحسنه وجمّله وأبدعه على غير مثال سابق؛ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن

---

(١) «حادي الأرواح» (ص٦٦).

(٢) «طريق الهجرتين» (ص٤٦٠).

(٣) «مدارج السَّالكين» لابن القيِّم (٣/ ٣١٩).

نفسه: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾ [السجدة: ٦-٩].

وقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦٤﴾ [غافر: ٦٤].

وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾ [الملك: ٣-٤].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٤﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤].

وقال سبحانه: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ۝٨٨﴾ [النمل: ٨٨].

وهو سبحانه المحسن المنعم على عباده؛ فقد أنعم سبحانه على العباد وأحسن إليهم بنعم لا تعد ولا تحصى، ومن أعظم أنواع الإحسان والبر أن يحسن سبحانه إلى من أساء، ويعفو عمن ظلم، ويغفر لمن أذنب، ويتوب على من تاب إليه، ويقبل عذر من اعتذر إليه.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الشورى: ٢٥].

فأيُّ إحسان إلا إحسانه، وأي إنعام إلا إنعامه، وأي كرم إلا كرمه، وأي جود إلا جوده، وأي فضل إلا فضله، وأي لطف إلا لطفه، وأي عطاء إلا عطاؤه، وأي بِرٍّ إلا بره..... ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]»[1].

رابعًا: إخلاص العمل لله تعالى ومتابعة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

لذلك يشترط في العبادات حتى تقبل عند الله عَزَّوَجَلَّ ويؤجر عليها العبد أن يتوفر فيها شرطان:

الشرط الأول: الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥].

---

(١) أحمد العماري، «الإحسان فضله وحقيقته».

ومعنى الإخلاص هو: أن يكون مراد العبد بجميع أقواله وأعماله الظاهرة والباطنة ابتغاء وجه الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [الليل: ١٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ [الإنسان: ٩].

وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١٥-١٦].

وعن عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**»[1]. رواه البخاري.

---

(١) بدء الوحي (١).

وجاء عند مسلم من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قَالَ اللهُ** تَبَارَكَ وَتَعَالَى: **أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»[(١)]. رواه مسلم.

الشرط الثاني: موافقة العمل للشرع الذي أمر الله تعالى أن لا يُعبد إلا به وهو متابعة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما جاء به من الشرائع فقد جاء في الحديث عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد**»[(٢)]. رواه مسلم.

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا الحديث أصل عظيم من أصول الإسلام وهو كالميزان للأعمال في ظاهرها، كما أن حديث: «**إنما الأعمال بالنيات**»، ميزان للأعمال في باطنها، فكما أن كل عمل لا يُراد به وجه الله تعالى، فليس لعامله فيه ثواب، فكذلك كل عمل لا يكون عليه أمر الله ورسوله فهو مردود على عامله، وكل من أحدث في الدين ما لم يأذن به الله ورسوله، فليس من الدين في شيء»[(٣)].

---

(١) الزهد والرقائق (٥٣٠٠).

(٢) الأقضية (٣٢٤٣).

(٣) «جامع العلوم والحكم» (١/ ١٧٦).

وأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باتباع سنته وهديه ولزومهما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهدين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ**»، وحذَّر من البدع فقال: «**وإياكم ومحدثات الأمور فإن كلَّ بدعة ضلالة**»(١).

قال ابن القيم: «فإن الله جعل الإخلاص والمتابعة سببًا لقبول الأعمال فإذا فقد لم تقبل الأعمال»(٢).

قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، قال الفُضَيْل: «أحسن عملًا، أخلصه وأصوبه».

خامسًا: التوبة النصوح والرجوع والإنابة:

معنى التوبة النصوح:

قال البغوي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَاخْتَلَفُوا فِي مَعْنَاهَا:

قَالَ عُمَرُ وَأُبَيٌّ وَمُعَاذٌ: «التَّوْبَةُ النَّصُوحُ» أَنْ يَتُوبَ ثُمَّ لَا يَعُودَ إِلَى الذَّنْبِ، كَمَا لَا يَعُودُ اللَّبَنُ إِلَى الضَّرْعِ.

---

(١) رواه الترمذي، العلم (٢٦٠٠)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢١٥٧).

(٢) «الروح» (١/ ١٣٥).

قَالَ الْحَسَنُ: هِيَ أَنْ يَكُونَ الْعَبْدُ نَادِمًا عَلَى مَا مَضَى؛ مُجْمِعًا عَلَى أَلَّا يَعُودَ فِيهِ.

قَالَ الْكَلْبِيُّ: أَنْ يَسْتَغْفِرَ بِاللِّسَانِ، وَيَنْدَمَ بِالْقَلْبِ، وَيُمْسِكَ بِالْبَدَنِ.

قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ: تَوْبَةً تَنْصَحُونَ بِهَا أَنْفُسَكُمْ.

قَالَ الْقُرَظِيُّ: يَجْمَعُهَا أَرْبَعَةُ أَشْيَاءَ: الِاسْتِغْفَارُ بِاللِّسَانِ، وَالْإِقْلَاعُ بِالْأَبْدَانِ، وَإِضْمَارُ تَرْكِ الْعَوْدِ بِالْجَنَانِ، وَمُهَاجَرَةُ سَيِّئِ الْإِخْوَانِ»[1]. انتهى.

شروط التوبة الصحيحة هي:

١- الإقلاع عن الذنب.

٢- الندم على ما فات.

٣- العزم على عدم العودة إليه.

وإذا كانت التوبة من مظالم العباد في مال أو عرض أو نفس، فتزيد شرطًا رابعًا، هو:

٤- التحلل من صاحب الحق، أو إعطاؤه حقه.

وقد أمر الله تعالى عباده بالتوبة النصوح، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ

(١) من «تفسير البغوي» (٨/ ١٦٩).

﴿جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٨﴾ [التحريم: ٨].

والندم شرط رئيسي أو هو ركن التوبة الأعظم، فعَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ مَعْقِلِ بْنِ مُقَرِّنٍ قَالَ: كَانَ أَبِي عِنْدَ عَبْدِاللهِ بْنِ مَسْعُودٍ فَسَمِعَهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَقُولُ: «**النَّدَمُ تَوْبَةٌ**»[1]. رواه أحمد، وصححه الألباني.

وقد قال بعض أهل العلم: «يَكْفِي فِي التَّوْبَةِ تَحَقُّقُ النَّدَمِ ؛ فَإِنَّهُ يَسْتَلْزِمُ الْإِقْلَاعَ عَن الذنوب، وَالْعَزْمِ عَلَى عَدَمِ الْعَوْدِ؛ فَهُمَا نَاشِئَانِ عَنِ النَّدَمِ لَا أَصْلَانِ مَعَهُ»[2].

وقال القاري رَحِمَهُٱللَّهُ: «((النَّدَمُ تَوْبَةٌ) إِذْ يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا بَقِيَّةُ الْأَرْكَانِ مِنَ الْقَلْعِ وَالْعَزْمِ عَلَى عَدَمِ الْعَوْدِ، وَتَدَارُكِ الْحُقُوقِ مَا أَمْكَنَ... وَالْمُرَادُ: النَّدَامَةُ عَلَى فِعْلِ الْمَعْصِيَةِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا مَعْصِيَةٌ، لَا غَيْرَ»[3]. انتهى.

---

(١) «مسند أحمد» (٤٠١٢).

(٢) انظر: «فتح الباري» (١٣/ ٤٧١).

(٣) من «مرقاة المفاتيح» (٤/ ١٦٣٧).

أمور معينة على تحقق الندم في قلب العبد:

وإنما يعين العبد على تحقق الندم في قلبه، أمور:

أولها: العلم بالله بعد الجهل به.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾ [النساء: ١٧-١٨].

قال مجاهد في قوله: ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾: «كل من عصى ربه فهو جاهل، حتى ينزع عن معصيته»[(١)]. انتهى.

ثانيها: ذكر الله بعد الغفلة عنه:

قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا

(١) من «الصحيح المسبور في التفسير بالمأثور» (٢/ ١٩).

ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٦].

عن علي بن أبي طالب قال: حدثني أبو بكر، وصدق أبو بكر، قال: سمعت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يقول: «**ما من رجل يُذنب ذنبًا، ثم يقوم فيتطهر، ثم يصلي، ثم يستغفر الله، إلا غفر الله له**». ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾»[1].

ثالثها: الخوف من مكر الله بعد الأمن منه:

قال تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٥٥-٦١].

---

(١) أخرجه أبو داود (١٥٢١)، والترمذي (٤٠٦)، وابن ماجه (١٣٩٥)، وصححه الألباني رَحِمَهُٱللَّهُ في «صحيح الجامع» (٥٧٣٨).

رابعها: رجاء رحمة الله بعد القنوط منها:

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الزمر: ٥٣-٥٥].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ نَاسًا مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ كَانُوا قَدْ قَتَلُوا وَأَكْثَرُوا وَزَنَوْا وَأَكْثَرُوا، فَأَتَوْا مُحَمَّدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: إِنَّ الَّذِي تَقُولُ وَتَدْعُو إِلَيْهِ لَحَسَنٌ، لَوْ تُخْبِرُنَا أَنَّ لِمَا عَمِلْنَا كَفَّارَةً؟ فَنَزَلَ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ﴾ [الفرقان: ٦٨]، ونزلت: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الزمر: ٥٣]»[(١)].

ومن أصلح ما بينه وبين الله، كفاه الله ما بينه وبين الناس، وذلك بأن يكون من أولياء الله تعالى الموحدين، المتقين، المحسنين، المخلصين

(١) رواه البخاري (٤٨١٠)، ومسلم (١٢٢).

العبادة لرب العالمين، السائرين على سنة نبينا محمد صلى الله عليهم وسلم، التوابين الأوابين المنيبين.

قال الشيخ عبدالعزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: «أولياء الله هم أهل التقوى والإيمان، وأهل الصلاح والاستقامة على دين الله وعلى ما جاء به رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، هؤلاء هم أولياء الله، هم أهل التقوى والإيمان كما قال الله سبحانه: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾، ثم فسرهم وقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٢-٦٣]، هؤلاء هم أولياء الله، هكذا في يونس، وقال في الأنفال: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤]، فأولياء الله هم أهل التقوى، هم أهل الإيمان، هم الذين أطاعوا الله ورسوله، واستقاموا على دين الله، وتركوا الشرك والمعاصي هؤلاء هم أولياء الله...»[1].

فمن كانت هذه أوصافهم فالله تعالى ينصرهم ويؤيدهم ويكفيهم شرور الدنيا، ويكفيهم ما أهمهم، ويصرف عنهم شر الأشرار وكيد الفجار.

---

(١) نور على الدرب، موقع الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله تعالى قال: مَن عادى لي وليًّا، فقد آذنتُه بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيءٍ أحب إلي مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببتُه كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورِجْله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه**». رواه البخاري.

وأيضًا السعي والاجتهاد في طلب رضا الله تعالى مهما كان الأمر، حتى وإن اجتمعوا عليك الناس جميعًا، فإن الله تعالى يكفيكهم وينصرك عليهم.

وكتب معاويةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إلى عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: أنِ اكتُبي لي كتابًا توصيني فيه، ولا تُكثري عليَّ؛ فكتبتْ إليه: «سلامٌ عليك، أما بعد، فإني سمِعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**مَن الْتمَس رضاء الله بسخط الناس، كفاه الله مؤونة الناس، ومَن التمس رضاء الناس بسخط الله، وَكَله الله إلى الناس**»، وسلام عليك». رواه الترمذي.

٤- ومن اهتم بأمر بآخرته كفاه الله أمر دنياه.

فالمؤمن يهتم بأمور الآخرة وما يقربه إلى الله تعالى، بالأيمان والأعمال الصالحة، وامتثال أوامر الله تعالى ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والابتعاد عن ما نهى الله تعالى عنه ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

التوحيد هو أعظم ما يهتم به المؤمن من أمر آخرته.

التوحيد هو الغاية التي خلق الله الخلق لأجلها.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

ومعنى التوحيد: الإفراد؛ أن نُفْرِدَ الله عَزَّوَجَلَّ بالعبادة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾؛ ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ يعني: إلا ليوحدوني بالعبادة؛ لأن العبادة أساسها التوحيد.

فالتوحيد هو الغاية من الخَلْقِ، والتوحيد هو حق الله؛ فحق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا.

ومن أسباب شرح الصدر: التوحيد، وعلى حسب كماله وقوته وزيادته يكون انشراح صدر صاحبه.

قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]».

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: «فسدِّد وجهك واستمِرَّ على الدين الذي شرعه الله لك من الحنيفية ملة إبراهيم الذي هداك الله لها، وكمَّلها لك غاية الكمال، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده، وأنه لا إله غيره؛ كما تقدَّم عند قوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وفي الحديث: «**إني خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم**»[(١)].

أهمية التوحيد و بعض ثمراته وفضائله العظيمة:

التوحيد من أجله خلق الله الخلق:

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، «هذه الغاية التي خلق الله الجنَّ والإنس لها، وبعث جميع الرسل يدعون إليها، وهي عبادته المتضمِّنة لمعرفته ومحبَّته، والإنابة إليه، والإقبال عليه، والإعراض عمَّا سواه، وذلك متوقِّف على معرفة الله تعالى فإنَّ تمام العبادة متوقفٌ على المعرفة بالله، بل كلَّما ازداد العبد

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٤٧١).

معرفةً بربه، كانت عبادته أكمل، فهذا الذي خلق الله المكلَّفين لأجله، فما خلقهم لحاجة منه إليهم»[(١)].

«فبيَّن -سبحانه- الحكمة في خلقهم، وهي أن يعبدوا الله وحده، وأنهم لم يُخلقوا عبثًا ولا سدًى، بل خُلقوا لهذا الأمر العظيم؛ وهو أن يعبدوا الله جَلَّوَعَلَا ولا يشركوا به شيئًا، ويخصُّوه بدعائهم، وخوفهم ورجائهم، وصلاتهم وصومهم، وذبحهم ونذرهم، وغير ذلك»[(٢)].

«فإذا عرفت أن الله خلقك لعبادته، فاعلم أن العبادة لا تُسمَّى عبادةً إلا مع التوحيد، كما أن الصلاة لا تُسمى صلاة إلا مع الطهارة، فإذا دخل الشرك في العبادة فسدت، كالحدث إذا دخل في الطهارة»[(٣)].

والتوحيد فطرة الله التي فطر الناس عليها:

قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

---

(١) «تفسير السعدي» (الذاريات: ٥٦).

(٢) «بيان معنى كلمة لا إله إلا الله» لفضيلة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، (ص٤٥-٤٦)، ط. مكتبة الصفا.

(٣) قاله الشيخ محمد بن عبدالوهاب (ت: ١٢٠٦هـ)، «رسالة القواعد الأربعة» من «متون العقيدة»، (ص٨٥)، ط. دار الآثار.

[الروم: ٣٠]؛ «﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾؛ أي: انصبه ووجِّهه ﴿لِلدِّينِ﴾ الذي هو الإسلام والإيمان والإحسان؛ بأن تتوجَّه بقلبك وقصدك وبدنك إلى إقامة شرائع الدين الظاهرة؛ كالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، ونحوها، وشرائعه الباطنة؛ كالمحبة، والخوف، والرجاء، والإنابة، والإحسان في الشرائع الظاهرة والباطنة، بأن تعبد الله فيها كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك، وخصَّ الله إقامة الوجه؛ لأن إقبال الوجه تبعٌ لإقبال القلب، ويترتَّب على الأمرين سعيُ البدن، ولهذا قال: ﴿حَنِيفًا﴾؛ أي: مُقْبِلًا على الله في ذلك، معرِضًا عمَّا سواه، وهذا الأمر الذي أمرناك به هو ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾، ووضع في عقولهم حسنها، واستقباح غيرها.

فإن جميع أحكام الشرع، الظاهرة والباطنة، قد وضع الله في قلوب الخلق كلهم الميلَ إليها، فوضع في قلوبهم محبة الحق وإيثار الحق، وهذه حقيقة الفِطَر، ومَن خرج عن هذا الأصل، فلِعارِضٍ عرض لفطرته أفسدها؛ كما قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كل مولود يُولَد على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه**».

﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: لا أحد يبدِّل خلق الله، فيجعل المخلوق

على غير الوضع الذي وضعه الله ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي أمرناك به ﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾؛ أي: الطريق المستقيم الموصل إلى الله، وإلى دار كرامته، فإنَّ مَن أقام وجهه للدين حنيفًا فإنه سالك الصراط المستقيم في جميع شرائعه وطرقه؛ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾، فلا يتعرَّفون الدين القيم، وإن عرفوه لم يسلكوه»[1].

التوحيد من أجله أخذ الله الميثاق على بني آدم:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢].

«يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم، وأنه لا إله إلا هو، كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجَبلهم عليه؛ قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الروم: ٣٠]، وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

(١) «تفسير السعدي» (الروم: ٣٠).

«**كل مولود يُولَد على الفطرة** -وفي رواية: **على هذه الملة- فأبواه يهوِّدانه وينصِّرانه ويمجِّسانه، كما تولد بهيمة جمعاء، هل تحسُّون فيها من جدعاء**»، وفي «صحيح مسلم» عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يقول الله: إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرَّمت عليهم ما أحللت لهم**»، وقال الإمام أبو جعفر بن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حدثنا يونس بن عبدالأعلى، حدثنا ابن وهب، أخبرني السَّرِيُّ بن يحيى: أن الحسن بن أبي الحسن حدثهم، عن الأسود بن سريع من بني سعد قال: غزوت مع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أربع غزوات، قال: فتناول القوم الذرية بعد ما قتلوا المقاتلة، فبلغ ذلك رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاشتدَّ عليه، ثم قال: «**ما بال أقوام يتناولون الذريَّة؟**»، فقال رجل: يا رسول الله، أليسوا أبناء المشركين؟ فقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن خياركم أبناء المشركين، ألا إنَّها ليست نسمة تولد إلا وُلِدَت على الفطرة، فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها؛ فأبواها يهوِّدانها، وينصِّرانها**»، قال الحسن: والله لقد قال الله في كتابه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] الآية، وقد رواه الإمام أحمد، عن إسماعيل بن علية، عن يونس بن عبيد، عن الحسن

البصري به، وأخرجه النسائي في «سننه» من حديث هُشَيم، عن يونس بن عبيد، عن الحسن، قال: حدثني الأسود بن سريع فذكره ولم يذكر قول الحسن البصري واستحضاره الآية عند ذلك، وقد وردت أحاديث في أخذ الذريَّة من صلب آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، وفي بعضها الاستشهاد عليهم بأنَّ الله ربهم.

قال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، حدثنا شعبة، عن أبي عمران الجوني، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء، أكنت مفتديًا به؟ قال: فيقول: نعم، فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك؛ قد أخذت عليك في ظهر آدم ألاّ تشرك بي شيئًا، فأبيت إلَّا أن تشرك بي**»؛ أخرجاه في «الصحيحين» من حديث شعبة به.

التوحيد من أجله أرسل الله الرسل:

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥].

«أي: قلنا للجميع: لا إله إلا الله؛ فأدلَّة العقل شاهدةٌ أنه لا شريك له، والنقل عن جميع الأنبياء موجود، والدليل إمَّا معقولٌ وإما منقولٌ،

وقال قتادة: لم يُرْسَل نبيٌّ إلا بالتوحيد، والشرائع مختلفة في التوراة والإنجيل والقرآن، وكلُّ ذلك على الإخلاص والتوحيد»[(١)].

«فإن قيل: إذا كان الدَّليل العقلي والدليل النقلي قد دلاَّ على بطلان الشرك، فما الذي حمل المشركين على الشرك، وفيهم ذوو العقول والذكاء والفطنة؟ أجاب تعالى بقوله: ﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾ [فاطر: ٤٠].

«أي: ذلك الذي مشوا عليه ليس لهم فيه حجة، وإنَّما ذلك توصية بعضهم لبعض به، وتزيين بعضهم لبعض واقتداء المتأخِّر بالمتقدِّم الضالِّ، وأماني منَّاها الشياطين، وزيَّنت لهم سوءُ أعمالهم، فنشأت في قلوبهم، وصارت صفة من صفاتها، فعسر زوالها، وتعسَّر انفصالُها، فحصل ما حصل، من الإقامة على الكفر، والشرك الباطل المضمحلِّ»[(٢)].

«﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ أي: بأن اعبدوا الله ووحِّدوه، ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾؛ أي: اتركوا كلَّ معبود دون الله؛ كالشيطان، والكاهن، والصنم، وكل مَن دعا إلى الضلال، ﴿فَمِنْهُم

(١) «تفسير القرطبي» (الأنبياء: ٢٥).

(٢) «تفسير السعدي» (الأنبياء: ٢٥).

﴿مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ﴾؛ أي: أرشده إلى دينه وعبادته، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [النحل: ٣٦]؛ أي: بالقضاء السابق عليه حتى مات على كفره»[(١)].

«فدلَّت الآية على أن الحكمة في إرسال الرسل هي عبادة الله وحده وتَرْك عبادة ما سواه، وأن أصل دين الأنبياء واحد وهو الإخلاص في العبادة لله، وإن اختلفت شرائعهم»[(٢)].

التوحيد من أجله أنزل الله الكتب:

قال تعالى: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢﴾ [هود: ١- ٢].

«يقول تعالى: هذا ﴿كِتَٰبٌ﴾ عظيم، ونُزُل كريم، ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾؛ أي: أُتْقِنت وأُحْسِنَت، صادقة أخبارها، عادلة أوامرها ونواهيها، فصيحة ألفاظه بهية معانيه، ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾؛ أي: ميزت، بينت بيانًا في أعلى أنواع البيان، ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ﴾ يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها، لا يأمر ولا ينهى إلا بما تقتضيه حكمته، ﴿خَبِيرٍ ۝١﴾ مطَّلع

(١) «تفسير القرطبي» (النحل: ٣٦).

(٢) «تيسير العزيز الحميد» (ص٥١).

على الظواهر والبواطن، فإذا كان إحكامه وتفصيله من عند الله الحكيم الخبير فلا تسأل بعد هذا عن عظمته وجلالته واشتماله على كمال الحكمة وسعة الرحمة، وإنما أنزل الله كتابه لأجل ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾؛ أي: لأجل إخلاص الدين كله لله، وألاّ يشرك به أحد من خلقه، ﴿إِنَّنِي لَكُمْ﴾ أيُّها الناس ﴿مِّنْهُ﴾؛ أي: من الله ربكم ﴿نَذِيرٌ﴾ لِمَن تجرَّأ على المعاصي، بعقاب الدنيا والآخرة ﴿وَبَشِيرٌ ۝٢﴾ للمطيعين لله، بثواب الدنيا والآخرة»[(١)].

«فهذه الآية الكريمة فيها الدلالة الواضحة على أن الحكمة العظمى التي أُنزل القرآن من أجلها هي: أن يُعبد الله جَلَّوَعَلَا وحده، ولا يُشرك به في عبادته شيء؛ لأن قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢﴾ [هود: ١- ٢]؛ صريح في أن آيات هذا الكتاب فصِّلت من عند الحكيم الخبير؛ لأجل أن يُعبد الله وحده»[(٢)].

---

(١) «تفسير السعدي» (هود: ١-٢).

(٢) «تفسير أضواء البيان» للشنقيطي (هود: ١-٢).

التوحيد هو أوَّل ما ندعو الناس إليه:

قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لمعاذ بن جبل رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: «**إنك تقدم على قومٍ من أهل الكتاب، فليكن أوَّل ما تدعوهم إليه أن يوحِّدوا الله تعالى...**»[(١)].

«قوله: «**ستأتي قومًا أهل كتاب**» هي كالتوطئة للوصية لتستجمع همته عليها؛ لكون أهل الكتاب أهل علم في الجملة، فلا تكون العناية في مخاطبتهم كمخاطبة الجُهَّال من عَبَدَة الأوثان، وليس فيه أن جميع مَنْ يقدم عليهم من أهل الكتاب، بل يجوز أن يكون فيهم من غيرهم، وإنما خصَّهم بالذكر تفضيلًا لهم على غيرهم، قوله: «**فإذا جئتهم**» قيل: عبر بلفظ «إذا» تفاؤلًا بحصول الوصول إليهم، قوله: «**فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله**»، كذا للأكثر وقد تقدَّم في أوَّل الزكاة بلفظ: «**وأنِّي رسول الله**»، كذا في رواية زكريا بن إسحاق لم يختلف عليه فيها، وأمَّا إسماعيل بن أمية ففي رواية روح بن القاسم عنه: «**فأوَّل ما تدعوهم إليه عبادة الله، فإذا عرفوا الله...**»، وفي رواية الفضل بن العلاء عنه: «**إلى أن يوحدوا الله، فإذا عرفوا ذلك...**»،

(١) صحيح، رواه البخاري، (٧٣٧٢)، كتاب التوحيد، باب: ما جاء في دعاء النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أمته إلى توحيد الله.

ويجمع بينها بأن المراد بعبادة الله توحيده، وبتوحيده الشهادة له بذلك ولنبيه بالرسالة، ووقعت البداءة بهما؛ لأنهما أصل الدين الذي لا يصحُّ شيءٌ غيرهما إلا بهما، فمَن كان منهم غير موحِّد فالمطالبة متوجِّهة إليه بكل واحدة من الشهادتين على التعيين، ومَن كان موحِّدًا فالمطالبة له بالجمع بين الإقرار بالوحدانية والإقرار بالرسالة وإن كانوا يعتقدون ما يقتضي الإشراك أو يستلزمه؛ كمَن يقول ببنوَّة عزير، أو يعتقد التشبيه، فتكون مطالبتهم بالتوحيد لنفي ما يلزم من عقائدهم»[(١)].

«وإذا أراد الدعوة إلى ذلك، فليبدأ بالدعوة إلى التوحيد الذي هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله؛ إذ لا تصحُّ الأعمال إلا به، فهو أصلها الذي تبنى عليه، ومتى لم يوجد لم ينفع العمل، بل هو حابط، إذ لا تصحُّ العبادة مع الشرك؛ كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾ [التوبة: ١٧]؛ ولأن معرفة معنى هذه الشهادة هو أول واجب على العباد، فكان أوَّل ما يبدأ به في الدعوة»[(٢)].

---

(١) «فتح الباري شرح صحيح البخاري» لابن حجر.

(٢) «تيسير العزيز الحميد» (ص١٢٢-١٢٣).

التوحيد هو أول المأمورات، وضده هو أول المنهيات:

قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١)﴾ [الأنعام: ١٥١].

«والمقصود أن الشرك أعظم ما نهى الله عنه، كما أن التوحيد أعظم ما أمر الله به، ولهذا كان أوَّل دعوة الرسل كلهم إلى توحيد الله عَزَّوَجَلَّ ونفي الشرك، فلم يأمروا بشيء قبل التوحيد، ولم ينهوا عن شيء قبل الشرك، كما قدَّمنا بَسْطَ ذلك.

وما ذكر الله تعالى التوحيد مع شيءٍ من الأوامر إلا جعله أوَّلها، ولا ذكر الشرك مع شيء من النواهي إلا جعله أوَّلها، كما في آية النساء: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: ٣٦]، وكما في آية الأنعام التي طلب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ البيعة عليها، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الآية: ١٥١]. وكما في آيات الإسراء: ﴿۞ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الآية: ٢٣]، فابتَدَأ تلك الأوامر

والنواهي بالأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك، وختمها بذلك»[١].

التوحيد شرط في قبول الأعمال:

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف: ١١٠].

وعن أبي سعيد بن أبي فضالة الأنصاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّه قال: سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إذا جمع الله الأوَّلين والآخرين ليوم لا ريب فيه، نادى منادٍ: مَنْ كان أشرك في عمل عمله لله فليطلب ثوابه من عند غير الله؛ فإن الله تعالى أغنى الشركاء عن الشرك**»[٢].

وعن أبي هريرة مرفوعًا قال: قال الله تعالى: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك؛ مَن عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركتُه وشِرْكَه**». رواه مسلم.

التوحيد يكفر الذنوب:

قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما يرويه عن ربه: «**يا ابن آدم، إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا؛ لأتيتك بقرابها**

---

(١) «معارج القبول» (١/ ٣٥٣).

(٢) حسن: أخرجه الترمذي، (٣١٥٤)، كتاب تفسير القرآن، باب: ومن الكهف، وحسَّنه الشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «صحيح الجامع» برقم (٤٩٦).

مغفرة». رواه الترمذي وهو حسن.

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: «مَن جاء مع التوحيد بقراب الأرض -وهو ملؤها، أو ما يقارب ملأها- خطايا، لقيه الله بقرابها مغفرة، لكن هذا مع مشيئة الله عَزَّوَجَلَّ فإن شاء غفر له وإن شاء أخذه بذنوبه، ثم كان عاقبته ألَّا يخلد في النار، بل يخرج منها ثم يدخل الجنة... فإن كمل توحيد العبد وإخلاصه لله فيه وقام بشروطه كلها، بقلبه ولسانه وجوارحه، أو بقلبه ولسانه عند الموت؛ أوجب ذلك مغفرة ما سلف من الذنوب كلها، ومنعه من دخول النار بالكلية»[1].

«ولهذا؛ مَنْ رجحت حسناتُه على سيئاته أفلح ولم يعذَّب، ووُهِبَت له سيئاته لأجل حسناته؛ ولأجل هذا يغفر لصاحب التوحيد ما لا يغفر لصاحب الإشراك؛ لأنه قد قام به مما يحبُّه الله ما اقتضى أن يغفر له ويسامحه ما لا يسامح به المشرك، وكلَّما كان توحيد العبد أعظم كانت مغفرة الله له أتمَّ، فمَنْ لقيه لا يشرك به شيئًا ألبتَّة غفر له ذنوبه كلها، كائنة ما كانت ولم يعذَّب بها»[2].

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (ص٤٨٣).

(٢) «تهذيب مدارج السالكين» لابن القيم (ص١٣٢)، ط. المكتبة التوفيقية، تهذيب الشيخ: أبو عمرو عماد البارودي.

التوحيد سببٌ في حلول البركة:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف: ٩٦].

لمَّا ذكر -تعالى- أنَّ المكذِّبين للرسل يبتلون بالضَّرَّاء موعظة وإنذارًا، وبالسَّرَّاء استدراجًا ومكرًا، ذكر أن أهل القرى لو آمنوا بقلوبهم إيمانًا صادقًا صدقته الأعمال، واستعملوا تقوى اللّه تعالى ظاهرًا وباطنًا بترك جميع ما حرَّم الله؛ لفتح عليهم بركات السماء والأرض، فأرسل السماء عليهم مدرارًا، وأنبت لهم من الأرض ما به يعيشون وتعيش بهائمُهم، في أخصب عيش وأغزر رزق، من غير عناء ولا تعب، ولا كدٍّ ولا نَصَب، ولكنَّهم لم يؤمنوا ويتقوا: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ بالعقوبات والبلايا ونزع البركات، وكثرة الآفات، وهي بعض جزاء أعمالهم، وإلَّا فلو آخذهم بجميع ما كسبوا، ما ترك عليها من دابة: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١]»[1].

---

(١) «تفسير السعدي» (ص٢٩٨).

التوحيد أول ما يسأل عنه العبد في قبره:

﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

«وهذه الآية نصُّها في عذاب القبر بصريح الأحاديث، وباتِّفاق أئمة التفسير من الصحابة فالتابعين فمن بعدهم، وأن المراد بالتثبيت هو عند السؤال في القبر حقيقة»(١).

«والقول الثابت: هو التوحيد؛ كما قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [إبراهيم: ٢٤]»(٢).

فهذه بعض ثمرات التوحيد وفضائله العظيمة وأهميته.

ومن الاهتمام بأمر الآخرة أيضًا التوكل على الله تعالى: وتفويض الأمور إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومن توكل على الله تعالى رزقه وأغناه وكفاه ونصره وآواه:

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الأنفال: ٢].

---

(١) «معارج القبول» (٢/ ١١٥).

(٢)«شرح العقيدة الواسطية» لابن عثيمين (ص٣٦٩).

وقال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة: ١٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [هود: ١٢٣].

فما هو التوكل؟

هو في اللغة: الاعتماد على الغير في أمر ما.

واصطلاحًا: صدق اعتماد القلب على اللّه تعالى في استجلاب المصالح ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة[١].

وقال الجرجاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التوكل هو الثقة بما عند اللّه، واليأس عما في أيدي الناس»[٢].

قال ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: «التوكل يجمع شيئين: أحدهما: الاعتماد على الله، والإيمان بأنه مسبب الأسباب، وأن قدره نافذ، وأنه قدر الأمور وأحصاها وكتبها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) «العلوم والحكم» لابن رجب (٤٠٩).

(٢) «التعريفات» (٧٤).

الثاني: تعاطي الأسباب، فليس من التوكل تعطيل الأسباب بل التوكل يجمع بين الأخذ بالأسباب والاعتماد على الله، ومن عطلها فقد خالف الشرع والعقل؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ أمر بالأسباب وحث عليها سبحانه وأمر رسوله بذلك وفطر العباد على الأخذ بها، فلا يجوز للمؤمن أن يعطل الأسباب بل لا يكون متوكلًا حقيقة إلا بتعاطي الأسباب؛ ولهذا شرع النكاح للعفة وحصول الولد وأمر بالجماع، فلو قال أحد من الناس أنا لا أتزوج وأنتظر الولد بدون زواج لعد من المجانين، وليس هذا من أمر العقلاء، وكذلك لو جلس في البيت أو في المسجد يتحرى الصدقات لم يكن ذلك مشروعًا ولا توكلًا؛ بل يجب عليه أن يسعى في طلب الرزق ويعمل ويجتهد مع القدرة على ذلك.

ومريم -رحمة الله عليها- لم تدع الأسباب، ومن قال ذلك فقد غلط، وقد قال الله لها: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي﴾ الآية [مريم: ٢٥-٢٦]، وهذا أمرٌ لها بالأسباب، وقد هزت النخلة وتعاطت الأسباب، حتى وقع الرطب فليس في سيرتها ترك الأسباب، أما وجود الرزق عندها وكون الله أكرمها به

وأتاح لها بعض الأرزاق فلا يدل على أنها معطلة للأسباب بل هي تتعبد وتأخذ بالأسباب، وإذا ساق الله لبعض أوليائه من أهل الإيمان شيئا من الكرامات؛ فهذا من فضله سبحانه لكن لا يدل على تعطيلهم الأسباب؛ فقد ثبت عن نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجزن**»، وقال سبحانه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]، فشرع لعباده العبادة له والاستعانة به وكلتاهما من أسباب السعادة في الدنيا والآخرة، والآيات الدالة على ذلك كثيرة»[(١)].

قال أبو حاتم بن حبَّان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الواجب على العاقل: لزوم التوكل على من تكفل بالأرزاق؛ إذ التوكل هو نظام الإيمان -النظام: هو السلك الذي تنظم فيه حبات العقد- وقرين التوحيد، وهو السبب المؤدي إلى نفي الفقر، ووجود الراحة، وما توكل أحدٌ على الله جَلَّ وَعَلَا من صحة قلبه، حتى كان الله جَلَّ وَعَلَا -بما تضمَّن من الكفالة- أوثق عنده بما حوته يده: إلا لم يكِلْه الله إلى عباده، وآتاه رزقه من حيث لم يحتسب.

---

(١) «مجموع فتاوى ومقالات الشيخ ابن باز» (٤/ ٤٢٧).

وأنشدني منصور بن محمد الكريزي:

توكلْ على الرحمن في كلِّ حاجةٍ أردتَّ فإن الله يقضي ويَقْدُرُ
متى ما يُرِدْ ذو العرش أمرًا بعبده يُصِبْه، وما للعبد ما يتخَيَّر
وقد يَهلك الإنسانُ من وجه أَمْنِه وينجو بإذن الله من حيث يَحْذَر[1]

أما كيفية التوكل في التجارة، فينبغي على العبد أن يلتفت إلى ما يلي:

أ- أن يعتقد أن الله تعالى قد قسم الأرزاق بين خلقه، وقدَّر ذلك في الأزل.

قال أبو حاتم بن حبَّان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العاقل يعلم أن الأرزاق قد فُرغ منها، وتضمنها العلي الوفي، على أن يوفرها على عباده في وقت حاجتهم إليها، والاشتغال بالسعي لما تضمن، وتكفل: ليس من أخلاق أهل الحزم، إلا مع انطواء صحة الضمير على أنه وإن لم يسع في قصده: أتاه رزقه من حيث لم يحتسب»[2].

ومما يدل على أن التوكل فيه أخذ بالأسباب: ما جاء عَنْ أَبِي تَمِيمٍ الْجَيْشَانِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(١) «روضة العقلاء ونزهة الفضلاء» (ص١٥٣-١٥٤).

(٢) «روضة العقلاء ونزهة الفضلاء» (ص١٥٥).

يَقُولُ: «**لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا**»(١).

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالسعي في السبب لا ينافي التوكل - وذكر حديث: «**لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله...**»- فأثبت لها رواحًا وغدوًّا؛ لطلب الرزق، مع توكلها على الله عَزَّوَجَلَّ، وهو المسَخِّر، المسيِّر، المسبِّب»(٢).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فعلى العبد أن يكون قلبه معتمدًا على الله، لا على سببٍ من الأسباب، والله ييسر له من الأسباب ما يصلحه في الدنيا والآخرة»(٣).

من توكل الأصفياء من خلق الله تعالى الأنبياء والمرسلين على رب العالمين:

- نوح عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لما دعا قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا،

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٤٤) وابن ماجه (٤١٦٤)، وصححه الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «صحيح الترمذي».

(٢) «تفسير ابن كثير» (٨ / ١٧٩).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٨ / ٥٢٨).

لم يؤمن معه إلا قليل، فقابل كيدهم ومكرهم متوكلًا على الله تعالى القوي العزيز، فقال لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ٧١﴾ [يونس: ٧١].

- وهذا هود عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ واجه قومه وقال لهم: «قال لهم ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۡۚ﴾ [هود: ٥٥-٥٦].

- وإبراهيم عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إذ قال: ﴿رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٤﴾ [الممتحنة: ٤].

ولما أرادوا قومه أن يحرقوه في النار كيدًا وانتقامًا منه، قال: حسبي الله، فجعل الله تعالى النار بردًا وسلامًا معجزةً شاهدةً على رسالته وصدقه عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ٧٠﴾ [الأنبياء: ٦٩-٧٠].

- ويعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لما ألمت به الهموم بفقد يوسف وأخيه عَلَيۡهِمَا ٱلسَّلَامُ، توكل على الله تعالى وفوض أمره إليه سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ففرج الله همه وشرح صدره ورد عليه غائبه: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٦٧﴾ [يوسف: ٦٧].

- وهنا يؤصل يعقوب عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مكانة التوكل على الله تعالى ويزرعها في أبناءه، ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٦٧ ﴾ [يوسف: ٦٧].

فسبحانه وتعالى الملك العلام سميع الدعاء عليه يتوكل المتوكلون.

- وموسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ واجه فرعون أطغى رجل عرفه التاريخ، ونازع الله تعالى في الربوبية؛ فقال لعنه الله تعالى: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤ ﴾ [النازعات: ٢٤].

فَثَبَّتَ الله تعالى موسى ومن معه من بني إسرائيل ونصره على فرعون وقومه، ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ٨٤ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٥ وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٨٦ ﴾ [يونس: ٨٤-٨٦].

- ونبينا وحبيبنا وقدوتنا محمد بن عبدالله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إمام المتوكلين على رب العالمين، فعَنْ أبي بكرٍ الصدِّيقِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ -وهو وأبوه وأمُّه صحابةٌ، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ- قال: نظرتُ إلى أقدامِ المشركين ونحن في الغارِ وهُمْ على رؤوسِنا فقُلتُ: يا رسولَ الله، لو أنَّ أحدَهم نظر تحت

قدَميْه لأبْصَرَنا؛ فقال: «**ما ظَنُّكَ يا أبا بكرٍ باثنينِ اللهُ ثالثُهُما**». متَّفقٌ عليه.

قال العلَّامةُ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله: «**ما ظَنُّك يا أبا بكرٍ باثْنينِ اللهُ ثالثُهُما**» أي: ما ظَنُّك، هل أحدٌ يقدر عليهما أو ينالُهما بسوءٍ؟ وهذه القصَّةُ كانت حينما هاجر النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مَكَّةَ إلى المدينةِ، وذلك أنَّ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما جهَر بالدعوةِ، ودعا الناس، وتبعوه، وخاف المشركون، وقاموا ضد دعوتِه، وضايقوه، وآذوه بالقول وبالفعل، فأذن الله له بالهجرة من مكة إلى المدينة، ولم يصحَبْه إلَّا أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، والدليل، والخادم، فهاجر بأمر الله، وصحبه أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ولما سمع المشركون بخروجه من مكةَ، جعلوا لمن جاء به مائتي بعيرٍ، ولمن جاء بأبي بكرٍ مائة بعير، وصار الناس يطلبون الرجلين في الجبال، وفي الأودية وفي المغارات، وفي كلِّ مكان، حتى وقفوا على الغار الذي فيه النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبو بكر، وهو غار ثَوْرٍ الذي اختفيا فيه ثلاث ليالٍ؛ حتى يبردَ عنهما الطلبُ، فقال أبو بكرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: يا رسولَ الله، لو نظر أحدُهم إلى قدميه لأبْصَرَنا، لأننا في الغار تحته؛ فقال: «**ما ظنُّك باثنينِ اللهُ ثالثُهما**». وفي كتابِ الله أنَّه قال له: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ

﴿مَعَنَآ﴾ [التوبة: ٤٠]، فيكونُ قال الأمْرَينِ كلاهما، أي: قال: «**ما ظَنُّك باثنينِ اللهُ ثالثُهما**»، وقال: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَآ﴾».

فقوله: «**ما ظَنُّك باثنينِ اللهُ ثالثُهما**» يعني: هل أحدٌ يقدرُ عليهما بأذيَّةٍ أو غير ذلك؟ والجوابُ: لا أحدَ يقدرُ، لأنَّه لا مانع لما أعْطَى الله ولا مُعطي لما منع، ولا مُذِلَّ لمن أعزَّ ولا مُعزَّ لمن أذلَّ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦﴾ [آل عمران: ٢٦].

وفي هذه القصَّةِ: دليلٌ على كمالِ توكُّلِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ على ربِّه، وأنَّه مُعتمِدٌ عليه، ومُفوِّض إليه أمرَه، وهذا هو الشاهدُ من وضع هذا الحديثِ في باب اليقين والتَّوكُّلِ.

وفيه دليل على أنَّ قصة نسج العنكبوت غير صحيحة، فما يوجد في بعض التواريخ، أن العنكبوت نسَجتْ على باب الغار، وأنَّه نبتَ فيه شجرة، وأنَّه كان على غُصنها حمامة، وأن المشركين لما جاءوا إلى الغار قالوا: هذا ليس فيه أحد، فهذه الحمامة على غصن شجرة على بابه، وهذه العنكبوت قد عششت على بابه، كل هذا لا صِحَّةَ له؛ لأنَّ الذي منع المشركين من رؤيةِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ وصاحبه أبو بكر

ليستْ أمورًا حسيَّة -تكون لها ولغيرها- بل هي أمور معنوية، وآيةٌ من آيات اللهِ عَزَّوَجَلَّ، حجب الله أبصار المشركين عن رؤية الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وصاحبه أبي بكرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أما لو كان أمور حسية، مثل العنكبوت التي نسجت، والحمامة، والشجرة، فكلُّها أمور حسية، كلٌ يختفي بها عن غيره، لكن الأمرَ آيةٌ من آيات الله عَزَّوَجَلَّ، فالحاصلُ أنَّ ما يُذكر في كتبِ التاريخ في هذا لا صحَّة له، بل الحقُّ الذي لا شك فيه، أنَّ الله تعالى أعمى أعين المشركين عن رؤية النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصاحبه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في الغار. والله الموفق»[1].

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾ [الطلاق: ٢-٣].

فمن جعل الآخرة همه وتوكل على الله تعالى حق توكله، وفوض الأمور إليه وحده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ كفاه الله تعالى أمر دنياه، ورزقه من حيث لا يحتسب، وتفتح له الأبواب المغلقة، وتفرج عنه الكروب والملمات والأحزان والهموم.

---

(١) المصدر: «شرح رياض الصالحين» (١/ ٥٦٣-٥٦٥).

وعَنْ عُمَرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعتُ رسولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ: «**لو أَنَّكُمْ تَتَوكَّلُونَ علَى اللهِ حقَّ توكُّله لرزقَكم كما يرْزقُ الطَّيرَ، تغدو خِماصًا وتَرُوحُ بِطانًا**». رواه الترمذيُّ، وقال: «حديثٌ حسَنٌ».

معناه: تذْهبُ أوَّلَ النَّهارِ خماصًا؛ أي: ضامرةَ البطونِ من الجوع، وترجعُ آخرَ النَّهار بِطانًا: أيْ: مُمتلِئةَ البُطُونِ.

قال العلَّامةُ ابنُ عُثيْمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقول النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حاثًا أمَّتَه على التَّوكُّلِ: «**لو أَنَّكم تتوكَّلون على اللهِ حقَّ توَكُّلِه**»؛ أي: توكُّلًا حقيقيًّا، تعتمدون على اللهِ عَزَّوَجَلَّ اعتمادًا تامًّا في طلبِ رزقكم وفي غيرِه: «**لرزَقَكم كما يَرْزقُ الطَّيرَ**»؛ الطيرُ رزقها على الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّها طيور ليس لها مالك، فتطير في الجوِّ، وتغدو إلى أوْكارِها، وتستجلبُ رزقَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

«**تغْدُو خِماصًا**»: تغدُو؛ أي: تذهبُ أوَّلَ النهارِ، لأنَّ الغدوة هي أول النهار. وخِماصًا يعني: جائعةً كما قال الله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [المائدة: ٣]. مخْمَصة: يعني: مجاعة.

«**تَغْدو خِماصًا**»؛ يعني: جائعة، ليس في بطونها شيءٌ، لكنَّها متوكلة على ربِّها عَزَّوَجَلَّ.

«**وتَروُحُ**»؛ أي: ترجعُ في آخرِ النَّهار؛ لأنَّ الرواح هو آخرُ النَّهارِ.

«**بِطانًا**»؛ أي: ممتلئةَ البطونِ، من رزقِ الله عَزَّوَجَلَّ. ففي هذا دليلٌ على مسائل:

أوَّلًا: أنَّه ينبغي للإنسانِ أنْ يعتمِدَ على الله تعالى حقَّ الاعتماد.

ثانيًا: أنَّه ما من دابة في الأرض إلَّا على اللهِ رزقها، حتى الطير في جو السماء، لا يمسكه في جوِّ السماءِ إلَّا الله، ولا يرزقه إلا الله عَزَّوَجَلَّ. كلُّ دابةٍ في الأرض، من أصغر ما يكون كالذَرِّ، أو أكبر ما يكون، كالفيلةِ وأشباهِها، فإنَّ على الله رزقُها، كما قال الله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ﴾ [هود: ٦].

ولقد ضلَّ ضلالًا مبينًا من أساء الظنَّ بربِّه، فقال: لا تُكثروا الأولاد تضيق عليكم الأرزاق! كذبوا وربِّ العرش؛ فإذا أكثروا من الأولاد أكثر الله في رزقهم؛ لأنَّه ما من دابةٍ على الأرض إلا على الله رزقها، فرزقُ أولادك وأطفالك على اللهِ عَزَّوَجَلَّ، هو الذي يفتح لك أبواب الرزق من أجل أن تنفق عليهم، لكن كثير من الناسِ عندهم سوءُ ظنٍّ بالله، ويعتمدون على الأمور الماديَّة المنظورةِ، ولا ينظرون إلى المدى البعيد، وإلى قدرة الله عَزَّوَجَلَّ، وإنَّه هو الذي يرزق ولو كثر الأولاد. أكثرْ

من الأولاد تكْثرُ لك الأرزاق، هذا هو الصحيح.

وفي هذا دليلٌ -أيضًا- على أنَّ الإنسان إذا توكلَّ على الله حقَّ التوكل فليفعل الأسباب.

ولقد ضلَّ من قال لا أفعلُ السَّببَ، وأنا متوكِّلٌ، فهذا غير صحيحٍ. المتوكلُّ: هو الذي يفعل الأسباب متوكِّلًا على الله عَزَّوَجَلَّ؛ ولهذا قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**كما يرْزقُ الطَّيْرَ تغدُوا خِماصًا**» تذهب لتطلب الرزق، ليست الطيور تبقي في أوْكارِها، لكنَّها تغدو وتطلبُ الرِّزقَ.

فأنت إذا توكَّلتَ على اللهِ حقَّ التوكُّلِ، فلابدَّ أن تفعل الأسباب التي شرعَها الله لك من طلبِ الرزقِ من وجهٍ حلالٍ بالزراعة، أو التجارة، بأي شيءٍ من أسباب الرزق، اطلبِ الرزقَ معتمدًا على الله، ييسر الله لك الرزق.

ومن فوائدِ هذا الحديث: أنَّ الطيورَ وغيرَها من مخلوقات الله تعرف الله، كما قال الله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾، يعني: ما من شيءٍ إلَّا يُسَبِّحُ بحمْدِ اللهِ، ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ

ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾ [الحج: ١٨].

فالطيور تعرفُ خالقها عَزَّوَجَلَّ، وتطيرُ تطلبُ الرِّزقَ بما جبلها اللهُ عليه من الفطرةِ التي تهتدي بها إلى مصالِحها، وتغدو إلى أوكارِها في آخر النَّهار بطونها ملأى، وهكذا دوَاليك في كلِّ يومٍ، والله عَزَّوَجَلَّ يرزقها ويُيَسِّرُ لها الرزقَ.

وانظرْ إلى حكمةِ الله، كيف تغدو هذه الطيور إلى محلاتٍ بعيدة، وتهتدي بالرجوع إلى أماكنِها، لا تخطئها، لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أعطى كلَّ شيءٍ خلْقَه ثمَّ هدَي. واللهُ الموفق»[1].

ومن الاهتمام بأمر الآخرة الاهتمام بالصلاة والمحافظة عليها:

الصلاةَ لها منزلة كبيرة في الإسلام بعد توحيد الله تعالى، روى الشيخانِ عن ابن عباسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لمعاذ بن جبلٍ حين بعثه إلى اليمن: «**إنك ستأتي قومًا من أهل الكتاب، فإذا جئتَهم فادعُهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإن هم طاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرَض**

(١) المصدر: «شرح رياض الصالحين» (١ / ٥٥٧ - ٥٦٠).

عليهم خمسَ صلواتٍ في كل يومٍ وليلةٍ، فإن هم طاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقةً، تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم طاعوا لك بذلك، فإياك وكرائمَ أموالهم، واتقِ دعوة المظلوم؛ فإنه ليس بينه وبين الله حجاب»[(١)].

معنى الصلاة:

الصلاة في اللغة: الدعاء بالخير.

قال الله تعالى لنبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣].

روى مسلمٌ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا دُعِيَ أحدكم فليُجِبْ، فإن كان صائمًا فليُصَلِّ، وإن كان مفطِرًا فليطعَمْ**»[(٢)].

الصلاة في الشرع: أقوال وأفعال مخصوصة، مفتتحة بالتكبير، ومختتمة بالتسليم، مع النية، بشرائط مخصوصة، وسُمِّيت صلاة؛ لاشتمالها على الدعاء[(٣)].

---

(١) البخاري (٤٣٤٧)، مسلم (١٩).

(٢) مسلم (١٤٣١).

(٣) «معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية» (٢/ ٣٧٦-٣٧٧).

والصلاة عمود الدين، فعن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة**». رواه الترمذي وابن ماجه وصححه لغيره الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح الترغيب».

والصلاة أحد أركان الإسلام، روى الشيخانِ عن ابن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بُنِيَ الإسلام على خمسٍ، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحجِّ، وصوم رمضان**»[1].

وأول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة فإن صلحت صلح فقد فاز ونجح، وإن فسدت خاب وخسر، روى الترمذي عن حريث بن قبيصة قال: قدمت المدينة، فقلت: اللهم يسِّرْ لي جليسًا صالحًا، قال: فجلست إلى أبي هريرة، فقلت: إني سألت الله أن يرزقني جليسًا صالحًا، فحدِّثْني بحديثٍ سمعتَه من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لعل الله أن ينفعني به، فقال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته، فإن صلَحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسَدت فقد خاب وخسِر، فإن انتقص من فريضته شيء،**

(١) البخاري (٨)، مسلم (١٦).

قال الرب عَزَّوَجَلَّ: انظروا هل لعبدي من تطوعٍ؟ فيكمل بها ما انتقص من الفريضة، ثم يكون سائر عمله على ذلك»[1].

قال الشيخ عبدالعزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: «فالصلاة أمرها عظيم وشأنها كبير، وهي أعظم فريضة، وأهم فريضة بعد الشهادتين، وقد أكثر الله من ذكرها في كتابه المبين تعظيما لشأنها وحثا للأمة على القيام بها والعناية بها والمحافظة عليها، ومن هذا قوله سبحانه: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة: ٢٣٨].

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النور: ٥٦]، وقد أثنى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على من حافظ عليها وخشع فيها وجعل ذلك من أوصاف المؤمنين الموعودين بالجنة، فقال سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون:١-٢].

ثم ذكر صفاتًا حميدة لأهل الإيمان ثم ختمها بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون:٩-١١].

---

(١) حديث صحيح، صحيح الترمذي» (٣٣٧).

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المعارج: ١٩-٢٣].

ثم ذكر صفات أخرى ختمها بقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المعارج:٣٤-٣٥]؛ فتبين بهذا عظم شأن الصلاة، وأن المحافظين عليها والخاشعين فيها والمعتنين بها لهم شأن عظيم ولهم أجر كبير، وهم وراثوا الفردوس ومن أصحاب الكرامة يوم القيامة في دار النعيم، فجدير بك يا أخي في الله، وجدير بك يا أختي في الله العناية بهذه الصلاة والإقبال عليها وتعظيم شأنها والمحافظة عليها في جميع أوقاتها الخمسة.

هي عمود الدين، وهي أول شيء تحاسب عنه يا عبدالله ويا أمة الله يوم القيامة من أعمالك.

وقد صح عن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنه قال في الصلاة: «**العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر**».

هذا يدل على عظم خطر التهاون بها، وأن تركها كفر بالله، نعوذ بالله من ذلك.

وقال أيضًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**بين الرجل وبين الكفر والشرك ترك الصلاة**»؛ فدل على أن تركها يوقع في الكفر والضلال ويوقع في الشرك»[1].

قال الشيخ عبدالرزاق بن عبدالمحسن البدر حفظه الله تعالى: «لا يختلف المسلمون أنَّ ترك الصلاة المفروضة عمدًا من أعظم الذنوب وأكبر الكبائر، وأنَّ إثمه عند الله أعظم من إثم قتل النفس، وأخذ الأموال، ومن إثم الزنا والسرقة وشرب الخمر، وأنه متعرض لعقوبة الله وسخطه وخزيه في الدنيا والآخرة، ثم إنهم اختلفوا في قتله وفي كيفية قتله وفي كفره، وأقوالهم في هذا وذكر أدلتهم وما احتج به أهل كل قول مبسوطة في كتب أهل العلم المعروفة، وليس هذا مجال بسطها.

ومن قال من أهل العلم بكفر تارك الصلاة قد احتج لذلك بأدلة قوية من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأقلّ أحوال هذه الأدلة أنها تبعث في قلب المسلم الحريص حب الصلاة وتعظيمها ومعرفة قدرها، وتحرك في نفسه حب المحافظة عليها والعناية بها وأدائها في وقتها كما أوجب الله.

---

(١) دروس ومحاضرات، أحاديث الإذاعة، موقع الشيخ.

يقول الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾ [المدثر: ٣٨-٤٧]؛ فأخبر تعالى أن تارك الصلاة من المجرمين السالكين في سقر؛ وهو واد في جهنم.

ويقول تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾ [مريم: ٥٩].

وقد جاء عن ابن مسعود: أن غيًّا نهر في جهنم، خبيث الطعم، بعيد القعر، فيا عظم مصيبة من لقيه ويا شدة حسرة من دخله.

ويقول تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١١]؛ فعلَّق أخوَّتهم للمؤمنين بفعل الصلاة، فدل ذلك على أنهم إن لم يفعلوها فليسوا بإخوان لهم.

ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [السجدة: ١٥]، ويقول تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾

[المرسلات: ٤٨-٤٩]، ذكر هذا بعد قوله ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [المرسلات: ٤٦].

وعن جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكَ الصَّلَاةِ**». رواه مسلم.

وعن بريدة بن الحصيب الأسلمي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ الصَّلَاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ**»(١).

وعن معاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ مُتَعَمِّدًا فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ ذِمَّةُ اللهِ وَرَسُولِهِ**»(٢).

وعن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ صَلَّى صَلَاتَنَا وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا فَذَلِكَ الْمُسْلِمُ الَّذِي لَهُ ذِمَّةُ اللهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ، فَلَا تُخْفِرُوا اللهَ فِي ذِمَّتِهِ**» رواه البخاري، وفي رواية عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «**مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاسْتَقْبَلَ**

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٣٤٦)، والترمذي (٢٦٢١)، والنسائي (٤٦٣)، وابن ماجه (١٠٧٩)، وصححه الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «صحيح الجامع» (٤١٤٣).

(٢) رواه أحمد (٥/ ٢٣٨)، وحسنه لغيره الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «صحيح الترغيب» (٥٧٠).

قِبْلَتَنَا وَصَلَّى صَلَاتَنَا وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا فَهُوَ الْمُسْلِمُ ؛ لَهُ مَا لِلْمُسْلِمِ وَعَلَيْهِ مَا عَلَى الْمُسْلِمِ». رواه البخاري.

وعن محجن الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ كَانَ فِي مَجْلِسٍ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأُذِّنَ بِالصَّلَاةِ فَقَامَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَصَلَّى ثُمَّ رَجَعَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمِحْجَنٌ فِي مَجْلِسِهِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا مَنَعَكَ أَنْ تُصَلِّيَ مَعَ النَّاسِ؟ أَلَسْتَ بِرَجُلٍ مُسْلِمٍ؟!**» قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، وَلَكِنِّي كُنْتُ قَدْ صَلَّيْتُ فِي أَهْلِي، فَقَالَ لَهُ: «**إِذَا جِئْتَ فَصَلِّ مَعَ النَّاسِ وَإِنْ كُنْتَ قَدْ صَلَّيْتَ**»[1].

وقد جاء عن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في هذا المعنى آثار كثيرة منها: ما جاء عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «لا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة»، وقال: «لا إسلام لمن ترك الصلاة»، قاله بمحضر من الصحابة ولم ينكر عليه، بل قال مثل قوله هذا غير واحد من الصحابة منهم: معاذ بن جبل، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو هريرة، وعبد الله بن مسعود وغيرهم.

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٣٤)، ومالك (٢٩٣)، والنسائي (٨٥٧)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح سنن النسائي».

وعن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى اللهَ غَدًا مُسْلِمًا فَلْيُحَافِظْ عَلَى هَؤُلَاءِ الصَّلَوَاتِ حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ، فَإِنَّ اللهَ شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُنَنَ الْهُدَى وَإِنَّهُنَّ مِنْ سُنَنِ الْهُدَى، وَلَوْ أَنَّكُمْ صَلَّيْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ كَمَا يُصَلِّي هَذَا الْمُتَخَلِّفُ فِي بَيْتِهِ لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ، وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ وَمَا مِنْ رَجُلٍ يَتَطَهَّرُ فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ ثُمَّ يَعْمِدُ إِلَى مَسْجِدٍ مِنْ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ إِلَّا كَتَبَ اللهُ لَهُ بِكُلِّ خَطْوَةٍ يَخْطُوهَا حَسَنَةً وَيَرْفَعُهُ بِهَا دَرَجَةً وَيَحُطُّ عَنْهُ بِهَا سَيِّئَةً، وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلَّا مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يُهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ» رواه مسلم.

فإذا كان هذا شأن من لا يشهد الصلاة مع الجماعة يعده الصحابة منافقًا معلوم النفاق، فكيف إذًا بالتارك لها؟! نسأل الله السلامة.

إنَّ ميزان الصلاة في الإسلام عظيم ومنزلتها عالية، وقد فرضها الله على نبيه محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غير واسطة من فوق سبع سماوات عندما عُرج به صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى السماء.

وقد ورد فيها غير ما تقدم مما يدل على فضلها، وعظم قدرها، وشدة عقوبة تاركها نصوص كثيرة في الكتاب والسنة، والمقام لا يسمح لأكثر من هذا.

ومع هذا فقد خفَّ ميزان الصلاة عند كثير من الناس حتى عند بعض طلبة العلم الشرعي والله المستعان، فمن الناس من تهاون بها، ومنهم من تهاون بشروطها وأركانها وواجباتها فلا يأتي بها على وجهها، ومنهم من يتهاون بالصلاة مع الجماعة ؛ وهذا من علامات المنافق عند الصحابة.

فالواجب علينا أن نحافظ على هذه الطاعة الجليلة والعبادة الجليلة التي هي أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، وأن نحذر أشد الحذر من سبيل المجرمين، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨﴾ [البقرة: ٢٣٨]»[1].

الاستعانة بالصلاة:

قال تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥﴾ [البقرة: ٤٥].

وهنا يَرِدُ السؤال عنوان المقال: كيف تكون الصلاة عونًا للإنسان على أمور الدنيا والآخرة؟

قال العلامة الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: «ما وجه الاستعانة بالصلاة

(١) مقالات متنوعة، الصلاة عماد الدين، موقع الشيخ.

على أمور الدنيا والآخرة؟ الجواب: أن الصلاة هي أكبر مُعِينٍ على ذلك؛ لأنَّ العبد إذا وقف بين يدي ربه يُناجي رَبَّهُ ويَتلو كتابه، تذكَّرَ ما عند الله من الثواب، وما لديه من العقاب، فهان في عينيه كلُّ شيء، وهانت عليه مصائب الدنيا، واستحقرَ لذَّاتها، رغبة فيما عند الله، ورهبة مما عند الله»[1].

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: «وأما نتيجة الاستعانة بالصلاة، فقد أشار لها تعالى في آيات من كتابه، فذكَرَ أنَّ مِن نتائج الاستعانة بها النهيَ عما لا يَليق؛ وذلك في قوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وأنها تَجلب الرزق؛ وذلك في قوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه: ١٣٢]؛ ولذا كان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا حزَبَه أمر بادَرَ إلى الصلاة، وإيضاح ذلك: أنَّ العبد إذا قام بين يدي ربه يُناجيهِ ويتلو كتابه، هان عليه كلُّ ما في الدنيا؛ رغبةً فيما عند الله، ورهبة منه، فيتباعد عن كل ما لا يُرضي الله؛ فيرزقه الله ويهديه»[2].

---

(١) «العذب النَّمير من مجالس الشنقيطي في التفسير» (١ / ٥٧).

(٢) «أضواء البيان» (١/ ٣٥).

ومن كانت الآخرة همه أتته الدنيا وهي راغمه فكفاه الله همها ويسر له أمورها، كما ذكر ذلك الصادق المصدوق نبينا وحبيبنا محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ**». رواه الترمذي.

ورواه ابن ماجه من حديث زَيْد بْن ثَابِتٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «**مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ، فَرَّقَ اللهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ، وَمَنْ كَانَتِ الْآخِرَةُ نِيَّتَهُ، جَمَعَ اللهُ لَهُ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ**»[1].

قال السندي في حاشيته على ابن ماجه: «**وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ**» أَيْ: مَقْهُورَةٌ».

فَالْحَاصِلُ: أَنَّ مَا كُتِبَ لِلْعَبْدِ مِنَ الرِّزْقِ: يَأْتِيهِ لَا مَحَالَةَ، إِلَّا أَنَّهُ مَنْ طَلَبَ الْآخِرَةَ يَأْتِيهِ بِلَا تَعَبٍ، وَمَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا يَأْتِيهِ بِتَعَبٍ وَشِدَّةٍ،

(١) وصححه الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٢ / ٦٣٤).

فَطَالِبُ الْآخِرَةِ قَدْ جَمَعَ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَإِنَّ الْمَطْلُوبَ مِنْ جِمْعِ الْمَالِ: الرَّاحَةَ فِي الدُّنْيَا، وَقَدْ حَصَلَتْ لِطَالِبِ الْآخِرَةِ، وَطَالِبُ الدُّنْيَا قَدْ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ؛ لِأَنَّهُ فِي الدُّنْيَا فِي التَّعَبِ الشَّدِيدِ فِي طَلَبِهَا، فَأَيُّ فَائِدَةٍ لَهُ فِي الْمَالِ إِذَا فَاتَتِ الرَّاحَةُ؟!». انتهى.

وقال المباركفوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: «**وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ**»، أي: وهو راغم، فلا يأتيه ما يطلب من الزيادة؛ على رغم أنفه وأنف أصحابه»[(١)]. انتهى.

وقال الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: «وقوله: «**وأتته الدنيا وهي راغمة**» مقابل لقوله: «**ولا يأتيه منها إلا ما كتب له**».

فيكون معنى الأول: وأتاه ما كتب له من الدنيا، وهي راغمة.

ومعنى الثاني: وأتاه ما كتب له من الدنيا ؛ وهو راغم»[(٢)]. انتهى.

ويتضح هذا بحديث جَابِرِ بْنِ عَبْدِاللهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا اللهَ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، فَإِنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا، وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، خُذُوا**

---

(١) من «تحفة الأحوذي» (٧ / ١٤٠).

(٢) من «شرح مشكاة المصابيح» (١١ / ٣٣٧٢).

مَا حَلَّ، وَدَعُوا مَا حَرُمَ»[١].

ومعنى: «**وأجملوا في الطلب**»: أي: «اطلبوا الرزق طلبا رفيقًا، وقد بين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المراد بذلك، بأن يأخذ الإنسان ما حل، ويدع ما حرم»[٢].

قال ابن القيم في «إغاثة اللهفان»: «تعذيب طلاب الدنيا ومحبيها ومؤثريها على الآخرة: بالحرص على تحصيلها والتعب العظيم في جمعها ومقاساة أنواع المشاق في ذلك فلا تجد أتعب ممن الدنيا أكبر همه وهو حريص بجهده على تحصيلها والعذاب هنا هو الألم والمشقة والنصب». اهـ.

ومن الآثار الواردة في الزهد في الدنيا:

قال الحسن: «من أحب الدنيا وسرته خرج خوف الآخرة من قلبه، ومن ازداد علما ثم ازداد على الدنيا حرصا لم يزدد من الله إلا بعدا، ولم يزدد من الله إلا بغضًا»[٣].

---

(١) رواه ابن ماجه (٢١٤٤)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٦ / ٢٠٩).

(٢) انظر: «فيض القدير» (٣/ ٢٠٧).

(٣) «الزهد» لابن أبي الدنيا.

قال عون بن عبدالله بن عتبة: «كانوا يتواصون فيما بينهم بثلاثة أحرف يكتب بها بعضهم إلى بعض: «من عمل لله تعالى كفاه الله الناس، ومن عمل لآخرته كفاه الله دنياه، ومن أصلح سريرته أصلح الله تعالى علانيته»[(١)]. وفي بعض الآثار -ليس بحديث- «من ذا الذي يبني على موج البحر دارا، تلكم الدنيا فلا تتخذوها قرارًا»[(٢)].

أما حقيقة الدنيا فانظر معي كيف صوَّرها لنا بعض الشعراء كما قال الشاعر أبو الحسن التهامي:

حُكمُ المَنِيَّةِ في البَرِيَّةِ جاري ... ما هَذِهِ الدُنيا بِدار قَرار
بَينا يَرى الإِنسان فيها مُخبِرًا ... حَتّى يُرى خَبَرًا مِنَ الأَخبارِ
طُبِعَت عَلى كدرٍ وَأَنتَ تُريدُها ... صَفوًا مِنَ الأَقذاءِ وَالأَكدار

ويقول الحريري في مقاماته، المقامة الشعرية -من «الكامل»-:

يا خاطِبَ الدّنيا الدّنِيّةِ إنّها ... شرَكُ الرّدى وقَرارَةُ الأكدارِ
دارٌ متى ما أضْحكتْ في يومِها ... أبْكَتْ غدًا بُعْدًا لها منْ دارِ
وإذا أظَلّ يسَحابُها لم ينتَقِعْ ... منْه صدًى لجَهامِهِ الغرّارِ
غاراتُها ما تنْقَضي وأسيرُها ... لا يُفتَدى بجلائِلِ الأخْطارِ

---

(١) «الزهد» لابن أبي الدنيا.

(٢) «الزهد» لابن أبي الدنيا.

هذا ما تيسر لي جمعه من فوائد ولطائف من قول الإمام ابن أبي الدنيا: «كان العلماء إذا التقوا تواصوا بهذه الكلمات، وإذا غابوا كتب بها بعضهم إلى بعض، من أصلح سريرته، أصلح الله علانيته، ومن أصلح ما بينه وبين الله، كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومَن اهتم بأمر آخرته كفاه الله أمر دنياه».

فما كان من صوابًا فمن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحده لا شريك له، وما كان فيه من خطأ أو نقص فمني ومن الشيطان وأعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

والله تعالى أسأل أن يجعل سرائرنا نقية صالحة، وأن يصلحنا ويثبتنا بالأعمال الصالحة التي تقربنا إليه، وأن يجعل همنا الآخرة ورضاه جل في علاه، وأن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، اللهم اغفر لنا ما قدمنا وما أخرنا وما أسررنا وما أعلنا وما أنت أعلم به منا أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت.

اللهم أحينا على التوحيد والسنة وأمتنا على التوحيد والسنة.

اللهم آمنا في أوطاننا، وأصلح أئمتنا وولاة أمورنا، وهيئ لهم البطانة الصالحة الناصحة التي تدلهم على كل خير يا رب العالمين، اللهم احفظ علينا عقيدتنا وأمننا وولاة أمرنا، واجعلهم هداةً مهتدين ووفقهم لما تحبه وترضاه يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام.

اللهمَّ اقسِمْ لنا مِنْ خشيَتِكَ ما تحولُ بِهِ بينَنَا وبينَ معاصيكَ، ومِنْ طاعَتِكَ ما تُبَلِّغُنَا بِهِ جنتَكَ، ومِنَ اليقينِ ما تُهَوِّنُ بِهِ علَيْنَا مصائِبَ الدُّنيا، اللهمَّ متِّعْنَا بأسماعِنا، وأبصارِنا، وقوَّتِنا ما أحْيَيْتَنا، واجعلْهُ الوارِثَ مِنَّا، واجعَلْ ثَأْرَنا عَلَى مَنْ ظلَمَنا، وانصرْنا عَلَى مَنْ عادَانا، ولا تَجْعَلِ مُصِيبَتَنا في دينِنا، ولَا تَجْعَلْ الدنيا أكبرَ هَمِّنَا، ولَا مَبْلَغَ عِلْمِنا، ولَا تُسَلِّطْ عَلَيْنا مَنْ لَا يرْحَمُنا يا رب العالمين.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فهرس الموضوعات

الموضوع **الصفحة**

مُقَدِّمَة ٥

من الفوائد أن العلماء اذا التقوا وإذا غابوا عن بعض كتب بها بعضهم إلى بعض..... ٦

من أصلح سريرته أصلح الله علانيته.....٧

ومن أصلح ما بينه وبين الله كفاه الله ما بينه وبين الناس.....١٦

ومما يصلح به العبد العلاقة بينه وبين الله تعالى:.....

أولًا: بالتوحيد.....١٧

ثانيًا: بالتقوى.....٢٠

فوائد عظيمة للتقوى في الدنيا والآخرة.....٢٤

ثالثًا: ومن إصلاح العلاقة بين العبد وربه تعالى استشعار عبادة الإحسان.....٣٨

رابعًا: إخلاص العمل لله تعالى ومتابعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.....٤٥

خامسًا: التوبة النصوح والرجوع والإنابة.....٤٨

ومن اهتم بأمر آخرته كفاه الله أمر دنياه.....٥٦

التوحيد هو أعظم ما يهتم به المؤمن من أمر آخرته.....٦٥
ومن الاهتمام بأمر الآخرة التوكل على الله تعالى.....٧٢
ومن الاهتمام بأمر الآخرة الاهتمام بالصلاة والمحافظة عليها....٨٦
فهرس الموضوعات.....١٠٤